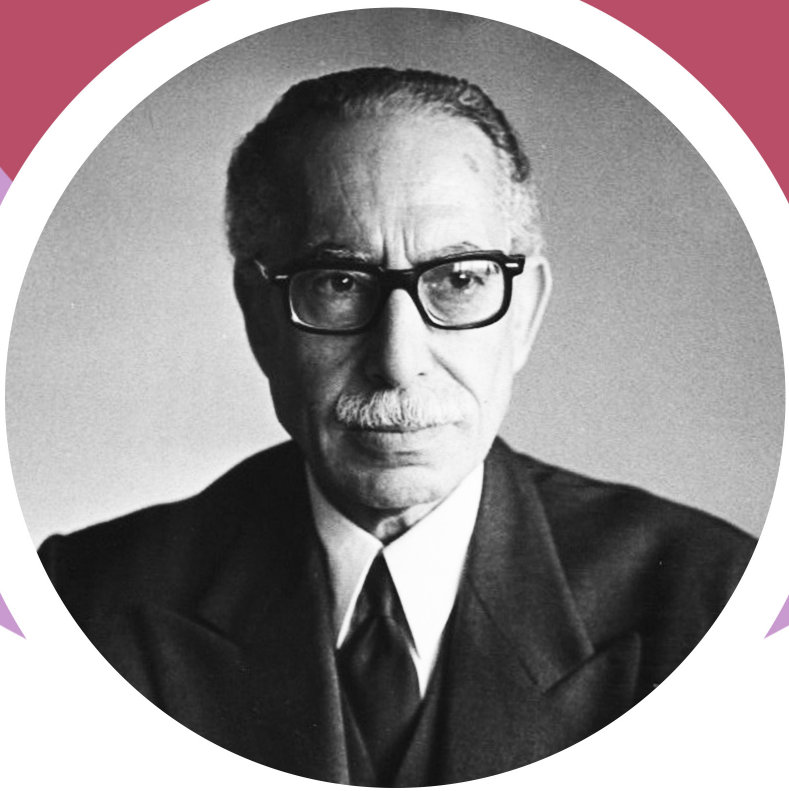

يا طالع الشجرة

توفيق الحكيم

يا طالع الشجرة

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

يا طالع الشجرة

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٦ ٣٢٥٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٦٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

القسم الأول ٢١
القسم الثاني ٦١

إلى صديقي
رجل العلم والأدب والفن
الدكتور حسين فوزي
شكرًا على هديته النفيسة
«سندباد مصري»

يا طالع الشجرة
هات لي معك بقرة
تحلب وتسقيني
بالمعلقة الصيني
إلخ ... إلخ

هل لهذا الكلام معنًى؟ ... ما هو المعنى الذي يُمكن أن يكون له؟ ... ومع ذلك فإنَّ أجيالًا من الأطفال والصبية قد ردَّدوه، وما زالوا يُردِّدونه في بلادنا، ولقد سألت أخيرًا صبيًّا يُردِّده؛ وكان فطنًا ذكيًّا، فاعترف بأنَّه فعلًا لا يَفْهَم له معنى، وأنَّه من غير المعقول في رأيه أن تكون هناك بقرة فوق الشجرة، وبرغم هذا انطلق يُردِّده في نشوة ومرح ... إذن ... فشيء خفي في هذا الكلام يستطيع أن يقوم بنفسه دون حاجة إلى معنى أو منطق.

هنا المنفذ الذي انفتح على عالم عجيب جديد: هو الفن الحديث، فقد اتجه هذا الفن الحديث إلى تعميق منطقة هذا الشيء الخفي، وكانت وسيلته التجرُّد أولًا من المعنى والمنطق، فأصبح التصوير مُجرَّد بقع لونية، والنحت بقع كتلية، والموسيقى بقع صوتية، والشعر بقع لفظية — كلمة «البُقع» هنا تعبير خاص عن انطباعي الشخصي ... ونتج عن ذلك نوع من الفن يتصل مباشرة بالعين أو بالأذن، دون أن يمرَّ بالعقل. ولقد أغراني هذا الفن الجديد في السنوات العشرين من هذا القرن — وأنا في باريس — بالشروع في المحاولة. فكتبت بضع قصائد شعرية نثرية من هذا النوع، وهو لا يتقيَّد أيضًا بنظم ولا بقالب معروف، أهملتها فيما بعد بالطبع ... لأنَّ اتجاهي الأصلي كان إلى المسرح.

وكان المسرح في عشرينيات هذا القرن — منذ أربعين عامًا — قد بدأ يلتفت في دهشة إلى المُجدِّد الإيطالي «بيراندللو»، وكنت أنا من أوائل مشاهديه في باريس. وأذكر جيِّدًا كيف

استُقبِل يومئذٍ بذلك الاستغراب والاستنكار والنقاش والجدل من خاصة المثقفين في مسرح طليعي صغير.

بل إنَّ «إبسن» و«برناردشو» كانا أيضًا وقتئذٍ يُمثِّلان في باريس فوق مسارح طليعية لا يؤمها إلَّا الخاصة. أمَّا «تشيخوف» فلم يكن أحد قد فكَّر في مسرحه بعد أو جرؤ على محاولة إخراجه في باريس. هذا ما كان يُسمَّى بالمسرح الحديث في ذلك الوقت ... لم يكن له علاقة بعد بالحركة التجريدية التي ظهرت بوادرها في التصوير والنحت والموسيقى والعمارة والشعر، كان على العكس، مسرحًا يقوم على المعنى والمنطق والعقل، بل وخاصة على العقل والفكر والذهن إلى أبعد حدٍّ. ومن هنا كان اتجاهي إليه مع المتجهين من عُشَّاق المسرح الحديث في العالم يومئذٍ. غير أنِّي تحوَّلت به التحوُّل الذي يُناسب طبيعتي وحالة المجتمع الذي نشأت فيه. ذلك أنِّي لم أشعر في ذلك الوقت أنَّ مجتمعي قد تهيَّأ بعد للدعوات الاجتماعية التي كان يُبشِّر بها «إبسن» و«برناردشو» ولا للتحليلات النفسية التي يُعالجها «بيراندللو» فكان أن تناولت قضايا ذهنية تنبع من تفكيرنا الشرقي مثل: «أهل الكهف» و«شهرزاد» و«سليمان الحكيم» ... إلخ.

صحيح أنَّه كانت لدينا مشكلة اجتماعية هامة عقب الحرب العالمية الأولى أثارت الجدل: هي مشكلة السفور والحجاب للمرأة في بلادنا، إلَّا أنَّه لم يكن من الممكن تناولها مسرحيًّا إلَّا على النحو الذي يُلائم حالة مسرحنا في تلك الأيام، وعلى النحو الذي كتبت به مسرحية «المرأة الجديدة». أمَّا التفكير في كتابتها على مستوى «إبسن» أو «برناردشو» — وهما اللذان لم يشُقَّا الطريق إلى المسرح في أوروبا نفسها إلَّا بعد وقتٍ وجهدٍ، وبقدر وحذر — فأمر سابق للأوان ... ربما اليوم، وبعد نجاح مسرحية مثل «السلطان الحائر» على مسرحنا أمام جمهور عادي قد نأمل في مشاهدة الكثير من القضايا الاجتماعية أو السياسية تُعرض في إطار مسرحي جاد.

قد يُقال: إنَّ مسرحية مثل «الصفقة» أو مثل «الأيدي الناعمة» أقرب إلى واقعنا الاجتماعي وإلى حالة مسرحنا اليوم، وأدعى إلى النجاح والتأثير. وهذا حق. وإنَّه لمن الضروري لنا أن تظهر مسرحيات عديدة من هذا النوع، إلَّا أنَّ النوع الآخر أيضًا يحسن وجوده — ولو على نطاق ضيِّق — أقصد به نوع «الواقعية الفكرية» — كما يُمكن أن أُسمِّيه: أو «الفكر الواقعي» — ذلك أنَّ «إبسن» أو «برناردشو» ومطورهما في الوقت الحاضر «جان بول سارتر» عندما يُعالجون واقعًا اجتماعيًّا أو سياسيًّا لا يتناولونه كمجرد

تصوير أو تعبير خارجي، بل يهبطون إلى أعماقه الفكرية ... من هنا جاءت دسامة هذا المسرح وعدم ملاءمته لكل أنواع الجماهير.

ومن هنا أيضًا، وعلى نحو أشق جاءت صعوبة تمثيل مسرحيات مثل «أهل الكهف» و«شهرزاد» لأنَّ الفكر هنا ليس هو «الفكر الواقعي» بل هو «الفكر المجازي»، أو الأسطوري بأشخاصه الأسطورية أو المجازية التي لا تُلمَس ولا تُصادَف في الحياة الواقعة. لكن ليس معنى الصعوبة أن نيأس وأن ننصرف إطلاقًا عن هذه الأنواع إلى الأنواع الأخرى الميسرة إلى النفوس، الأكثر استجابة إلى الجماهير. يجب أن نتشجَّع ونقتحم الصعوبة، ونُطوِّر هذا النوع الصعب، كما استطاع «جان أنوي» أن يُطوِّر اليوم «بيراندللو» ويدنو به من جماهير أوسع (سارتر وأنوي ما كانا بالطبع قد ظهرا بعد عندما كنت في باريس في ذلك العهد)

كان هذا هو الوضع في السنوات العشرين لهذا القرن، إذا استثنينا بعض محاولات غريبة قام بها «ألفريد جاري» في مسرحيته «أوبوملكا» و«جان كوكتو» في مسرحيته «أورفيه» و«عرسان برج إيفل» و«مارسيل أشار» في مسرحية «أتريدين أن تلعبي معي» ثمَّ الأمريكي «ساتون فين» في مسرحيته «في عرض البحر»؛ محاولات اتسمت بالغرابة والأغراب، ولكن أغلب أصحابها لم يلبثوا أن هجروها إلى المسرح الواسع، ولم يحاولوا الظهور بمظهر المدرسة المتماسكة المُصِرَّة على الصمود ... لذلك لم أنظر إليها نظرتي الجدية إلى المسرح الحديث الحقيقي الذي بدا أنَّه اتخذ جذورًا قوية في تاريخ الأدب المسرحي، على الرغم من ضعف نفوذه في الجماهير الواسعة، وأعني به مسرح «إبسن» و«برناردشو» و«بيراندللو» ذلك المسرح المعتمد على الحركة الداخلية للفكر والنفس، أكثر من اعتماده على الحركة الخارجية للمواقف والعواطف.

وأخيرًا ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية — وعلى الأخص في السنوات الخمسين لهذا القرن — بوادر مدرسة جديدة في المسرح، ظهرت متفرقة أول الأمر. «برخت» في ناحية و«أونسكو» و«بيكيت» و«فوتييه» و«آداموف» في ناحية أخرى، ولكن سرعان ما بدا على هذه الحركة علامات التماسُك والإصرار، وإذا هي تصمد بقوة أمام هجمات المعارضين من أغلبية النقَّاد والمشاهدين إلى الحد الذي لم يُصبح في الإمكان تجاهلها.

وقد حاولت تجاهلها فعلًا على الرغم من مطالعتي وتتبُّعي لإنتاجها، ولم أُفكِّر أثناء إقامتي في باريس عام ١٩٥٩–١٩٦٠م أن أقترب منها. فقد رأيت جيلي من شباب السنوات العشرين لهذا القرن قد أصبحوا كهولًا وشيوخًا داخل مجامع الأدب: «كوكتو» أصبح عضوًا في «الأكاديمي فرانسيز» وكذلك «مارسيل ناتيول» أما «مارسيل آشار» فكانوا يحتفلون

باستقباله في المجمع في ذلك العام ... وكانوا كلهم أبعد ما يكونون عن هذه المدرسة الجديدة لجيل «أونسكو» و«فوتيبه» و«آداموف».

إذن ... ما الذي يدعوني أنا إلى النظر إلى هذه الحركة نظرة الجد؟

لم أكن أتصوَّر أنِّي سأهتم بها يومًا ... وقد غرست قدمي كل تلك الأعوام الطويلة في أرض أخرى.

ما الذي تغيَّر إذن؟

هنا بعد عودتي إلى بلادي منذ عامين أخذت أتأمَّل فنون شعبنا ... وإذا بي أجد الأرض الحقيقية التي احتوت معدن هذا الفن الحديث كله.

إذا كانت السمة الظاهرة في الفن الحديث، من: تصوير ونحت ومسرح ... إلخ، هي التعبير عن الواقع بغير الواقع، والالتجاء إلى اللامعقول واللامنطقي في كل تعبير فني، وابتداع التجريد في الوصول إلى إيقاعات ومؤثرات جديدة ... فإنَّ كل ذلك قد عرفه فناننا القديم والشعبي على أرض بلادنا منذ القدم.

وإذا كان «بيكاسو» في تجريده وبُعده عن واقعية الأسلوب قد صوَّر الوجه الجانبي «البروفيل» والوجه الأمامي معًا وفي وقت واحد، فقد صنع ذلك الفنان المصري القديم عندما صوَّر الوجه الجانبي للرأس فوق الصدر الأمامي للجسم.

وإذا كان المذهب التكعيبي في التصوير الحديث أراد بتجريداته الهندسية أن يصل إلى أشكال وإيقاعات جديدة؛ فإنَّ فن الزخرفة عندنا في المساجد والمباني والأواني قد عرف من قديم هذه التجريدات الهندسية للمربعات والمكعبات، ووصل بها إلى إيقاعات بديعة.

وإذا كان النحت التكعيبي يُعبِّر عن حركة الأجسام بكتلة مُكعَّبة أو مُربَّعة، فإنَّ النحات المصري القديم في تمثال «الكاتب» الجالس القرفصاء، قد عبَّر عن الحركة بالكتلة المربعة أبرع تعبير.

فإذا انتقلنا إلى التصوير الشعبي المصري وجدنا العجب ... فهو قد زاول «السريالية» وما فوق الواقعية قبل أن يخطر هذا المذهب للأوروبيين على بالٍ، ويكفي أن ننظر إلى تلك الصور المرسومة على حيطان الحجاج، أو على صفحات كتاب ألف ليلة وليلة، أو على لوحات الورق التي تُمثِّل مبارزات أبي زيد الهلالي سلامة، والزناتي خليفة، وغيرهما من أبطال الأساطير الشعبية. من ذلك صورة كنتُ أراها في صباي لفارس من أولئك الفرسان الشعبيين وهو يضرب بسيفه رأس خصمه، فإذا السيف قد شقَّ الرأس والجسم معًا، وإذا الصورة تُمثِّل الخصم مشقوق الجسم وهو لم يزل في مكانه فوق حصانه، وكأنَّه لم يُدْرِك

بعد ما أصابه ... ونفس هذه الصورة عبَّر عنها بالكلام الأديب الشعبي في مثل هذا الموقف وقد ضرب فارس من فرسان الأساطير الشعبية «لعله أبو زيد أو الزناتي» ضربة سيف شطر بها عدوه من منتصفه، وظلَّ العدو على فرسه لم يفطن إلى إصابته؛ بل قال ساخرًا للفارس الضارب: «طاشت منك الضربة» فأجابه الفارس: «اهتز يا ملعون!» ... فلمَّا اهتزَّ بجسمه انشطر الجسم نصفين ووقع على الأرض! هذه الصورة غير الواقعية قصد بها قصدًا أن تكون هكذا ... لأنَّ الفنان الشعبي في بلادنا — مُصوِّرًا كان أو أديبًا — قد أدرك بالسليقة هذه المنطقة الغنية العميقة من مناطق التعبير الفني، قبل أن يُدْرِكها الفنان الغربي ويضع لها المذاهب.

هذا هو السبب الذي دعاني اليوم إلى كتابة هذه المسرحية؛ فنحن أولى من غيرنا باستلهام أساليبنا الشعبية في الاتجاهات الفنية المختلفة.

ولم أشأ عن عمدٍ أن أكتب هذه المسرحية بلغة شعبية: أي بالعامية، وذلك لسببين: الأول أنِّي أردت أن يكون مفهومًا أنَّ الاستلهام ليس هنا على أساس لفظي أو لغوي ... بل على أساس آخر.

فنحن قد اعتدنا عند النظر في أدبنا الشعبي أن نتجه توًّا نحو اللغة، وإلى اللفظ، وهذا يصرفنا أحيانًا كثيرة عن تأمُّل الأسلوب الداخلي للتعبير الفني ذاته، ولماذا هو واقعي أو غير واقعي، وما سر اللامعقولية واللامنطقية فيه؟ ... وما هدف الفنان الشعبي من هذا اللون من ألوان التعبير؟ ... وكيف استطاع أن يرتاد بهذه الطريقة مناطق عجيبة.

والسبب الثاني: أنَّ المسرحية — وقد خرجت قصدًا عن الواقعية — سقط المُبرِّر لاستخدام اللغة الواقعية لأشخاصها. وأصبح من المُلائم لحوادثها غير الواقعية لغة غير واقعية أيضًا: أي غير عامية، وبذلك يبتعد التعبير والتصوير عن الواقع على قدر الإمكان ... سواء في الشخصية أو اللغة.

على أنَّه من الضروري هنا أن ألفت النظر إلى أمر هام: وهو أنِّي أعتقد أنَّ مسرحنا الحاضر لم يزل في حاجة ماسة إلى الفن الواقعي إلى سنوات عديدة مقبلة، فنحن لم نفرغ بعد من تصوير وتسجيل مراحل حياتنا الواقعة ومجتمعنا المُتطوِّر، لهذا لا أنصح بهذا اللون غير الواقعي إلَّا في أضيق الحدود.

ولولا دواعي النهضة التي تقضي بأن تكون كل أنواع الفن، في المسرح وغيره مُمثَّلة لدينا ... وأن تُفْتَح جميع الأبواب أمام كل السُّبل والطرق والأساليب؛ حتَّى يستطيع كل جيل أن يتحرَّك ويسير، لا يعوقه باب مُغلق عن اختيار النوع الذي يُؤهِّله له استعداده،

لولا هذا الاعتبار الهام لما رأيت ضرورة لفتح هذا الباب ... فإنَّ ما ينبغي أن نخشاه هو أن يجمد فننا في قالبٍ واحدٍ، في الوقت الذي يتحرَّك فيه الفن العالمي في مختلف الاتجاهات.

وهذا الاتجاه الذي تسير فيه هذه المسرحية، وإن كان مُسايرًا لاتجاه ما يُسمَّى بالمسرح الجديد اليوم في تحرُّره من الواقعية؛ إلَّا أنَّه لا يخضع لنوعٍ مُعيَّن فيه، فإنَّ طبيعتي الشخصية من جهة، واستلهاماتي الشعبية المصرية من جهة أخرى لها دون شك — وربما على رغمي — دخل كبير في تكييف نوعها تكييفًا خاصًّا يُمكن أن أُسمِّيه الآن مثلًا: «اللاواقعية الشعبية الفكرية».

إنَّها إذن نوع يُناقض «الواقعية الفكرية» لـ«إبسن» و«بيراندللو» و«شو» التي انقلبت عندي في «أهل الكهف» و«شهرزاد» و«سليمان» ... إلخ، إلى «المجازية الفكرية» بحكم الطبيعة الخاصة كذلك، والمجتمع الشرقي وقتئذٍ كما قدَّمت.

لكن أليس من التناقض الجمع بين الشعبية والفكرية؟! ... ربما ظهر هذا للوهلة الأولى ... غير أني أعتقد شخصيًّا، وأحب دائمًا أن أرى وأن أستخرج — كما حدث عندي في «شهرزاد» — من فننا الشعبي أساسًا فكريًّا ... حتَّى عندما لا يُريد الفن الشعبي أن يقول شيئًا ... بل وعلى الأخص عندما لا يُريد أن يقول شيئًا ... وليس هذا من قبيل المزاح:

ها هنا الفن الحديث كله في جوهره الحقيقي: إنَّه لا يُريد محاكاة الطبيعة أو الواقع المنظور، إنَّه يُريد أن يكون خلقًا مستقلًّا من ذات فكر الإنسان و«توليفاته» و«تفانينه» ... إنَّه يُريد أن يقول شيئًا عندما لا يقول شيئًا.

إنَّ «بيكاسو» مثلًا — وأذكره، لا لذاته، بل كمجرد رمز ودلالة على الفن الحديث — عندما يُصوِّر تشكيلًا فنيًّا يبدو لنا بلا معنى، وهو الحق لا يُريد أن يحمِّله معنى، حتَّى وإن وضع تحت الصورة عنوانًا ... لأنَّ المعنى الذي يُريده لا يُقال، وإنَّما يعمل ... لا يُسمَّى باسم، إنَّما يكتشف بالخلق جديدًا مجهولًا في عالم المعروفات ... وإنَّ عملية الكشف والخلق وحدها هي المعنى ... ولا يُمكن أن يكون لهذا المخلوق الجديد أي معنى نفهمه نحن طبقًا للمعاني المعروفة لدينا ... لأنَّه لا يتصل بعالم الجمال الذي نعرفه، ولا بالمنطق الذي نفهمه ... إنَّه يُحوِّل ويُحوِّر الجمال القديم إلى نوعٍ آخر مجهول ... لجمال جديد في عرفه واعتقاده.

ما جدوى ذلك إذن؟

جدواه — إذا نجح — أن يُضيف إلى عالم الجمال الذي نعرفه واعتدناه قارة أخرى مجهولة موحشة قليلًا في أول الأمر ... ولكن عندما نعتادها ونطورها سنظفر منها بثروة

جديدة وأفق جديد مفتوح على احتمالات ومقدورات عديدة ... وبوادر نجاح قد ظهرت في مثل بسيط: أثواب النساء، من كان يُبْصِر منذ ثلاثين أو عشرين عامًا أقمشة الأثواب تُزيِّنها لا رسوم ذات معنى من زهور ونحوها، بل مُكعَّبات ومُربعات ودوائر من أعمال الفن التكعيبي، بُقع ثمَّ بُقع كبيرة من الألوان الصاخبة وكأنَّها قد أريقت إراقة عفوية فوق القماش؟! ... خطوط وألوان تجريدية مُجرَّدة من كل معنى، ومع ذلك قد رضيت بها النساء، وأقبلن عليها دون استنكار أو ضجيج ... واعتدن ألوانها وأشكالها ... واكتسبن أنواعًا جديدة من الزينة أضفنها إلى الأنواع التقليدية المعروفة، وسُرِرن بهذا الخلط — شبه الاعتباطي — للألوان ووجدن فيه سحرًا ... لعل سر ذلك أنَّ المرأة لا تقيس الأشياء بعقلها ... ولا تفهم الجمال بالمنطق ... وهي مُستعدة دائمًا أن تنفذ إلى صميم الأشياء عن طريق حاسة مجهولة.

وفننا الشعبي قد عرف — قبل كل هذه المدارس — هذه الأسرار دون أن نُلقي إلى مقصده بالًا.

ولطالما اتهمنا عرائس المولد الحلاوة ومخلوقاته العجيبة المختلفة، من طيور وحيوان وزهور ورسوم وأشكال وأوراق ملونة ومذهبة ومفضضة وقطع زجاج وصفيح، بأنَّها أعمال بدائية قبيحة ساذجة، وطالب بعضنا بما يُسمِّيه تطويرها إلى ذلك النوع من الكمال والجمال المحفوظ الممضوغ: جمال «الكارت بوستال»، دون أن نُدرك أنَّها بصورتها الشعبية إنَّما تكاد تُمثِّل أحدث مدارس الفن في أوروبا قبل أن تظهر هذه المدارس بأجيال ... وأعرف من الأوروبيين من اشترى من بلادنا عروسة مولد من الحلاوة ووضعها في داره بباريس بين لوحات «البراك» و«وديلياتي» و«ماتيس» ... ولا يخشى على هذه القطعة — الفنية في نظره — من شيء إلَّا من النمل!

ولكن ... عندما أُريد استلهام فننا الشعبي في مسرحية، فإنَّ الأمر يختلف قليلًا.

فالمسرحية لا بُدَّ أن تحمل معنى ولا يكفي فيها المعنى الداخل في ذات تشكيلها ... ربما استطاع الشعر — وخصوصًا السريالي والدادي — أن يحمل معنى وجوده في ذات صياغته ... ولكن المسرحية، وكذلك القصة، لا بُدَّ أن تقول شيئًا.

فالمسرحية لا يُمكن أن تقوم إلَّا بأشخاص ... والأشخاص لا بُدَّ أن يتكلَّموا ... وإذا تكلَّموا فلا بُدَّ أن يقولوا شيئًا ... وإذا لم يقولوا شيئًا وقفت المسرحية ... المسرحية عمل إنساني: أي يتعلَّق بذات الإنسان ... وهي أكثر التصاقًا بالإنسان من القصة، ومن الشعر ومن أي خلق فني آخر ... لأنَّ هنالك من القصص أو الشعر، ما يُمكن أن يستغني عن وجود الإنسان ويدور حول حيوان أو جماد أو مظهر من مظاهر الطبيعة.

ولكن المسرحية لا بُدَّ لها من الإنسان.

إنَّها كون، والإنسان واقف فيه يتكلم ويُحاور ويسأل، ويُجاب، أو يُريد أن يُجاب.

وموقف الإنسان في الكون موقف عجيب ... إنَّه يُريد دائمًا أن يتكلَّم وأن يسأل وأن يتلقَّى جوابًا.

فإذا صمت الكون عنه فالويل للكون ... إنَّه يبدو عندئذٍ عبثًا من العبث في نظر هذا الإنسان، المُسمَّى أحيانًا «ألبير كامو» وأحيانًا أخرى أسماء أخرى كثيرة في مختلف البلاد واللغات ... إنَّهم على استعداد دائمًا لتحطيم هذا الكون أو تحطيم أنفسهم إذا لم يجدوا عنده الجواب الصريح ... ولكن الكون لا يتحطَّم إلَّا في نظرهم ... إنَّه قائم دائمًا لا يقول شيئًا ... وهو مع ذلك يقول كل شيء.

وفننا الشعبي — لأنَّه نابعٌ من الفطرة المتصلة اتصالًا مباشرًا بالطبيعة وبالكون — يقول أشياء كثيرة دون أن يبدو عليه أنَّه يقول شيئًا ... وأنَّ هذا الخلط الذي نحسبه خلطًا؛ ليس إلَّا وسيلة تلقائية من وسائل تعبيره، عندما نتأملها نجدها مشحونة بطاقات صالحة للاستلهام والاستغلال الفني ... ذلك أنَّ الفنان الشعبي لم يُحاول محاكاة أساليب الجمال الفني التقليدية ... ربما عن قصور أو تقصير أو جهل ... وربما أيضًا عن إرادة ... وكل هذا سواء. المهم أنَّه لا يسير في الدروب المعروفة المعترَف بها ... وتلك هي الفكرة الأساسية في الفن الحديث ... إنَّه قد أدرك عن يقين أنَّ الفن التقليدي لم يعد في الإمكان محاكاته، دون الهبوط إلى التقليد العقيم ... إنَّ الجمال القديم قد استوى على عرشه، وما علينا إلَّا أن نُعيده ... أمَّا الإنتاج على غزارة فلغو وتكرار لن يُضيف جديدًا، ولا ينفع إلَّا الطلاب في تمريناتهم، وحذاق المقلدين المرتزقين من حرفة محاكاة الأقدمين. وآلاف منهم يظهرون في كل جيل وفي كل قرن، ويعيشون على براعتهم وإجادتهم في النقل الأمين للجمال الخالد، ولكن الابتكار يجب أن يستمر. وهو لن يُسمَّى ابتكارًا إلَّا إذا شق طريقًا آخر غير مألوف ولا معروف، حتَّى وإن كان غير مستساغ ... ولا بُدَّ من الخيار بين أمرين: إمَّا أن نجلس بجوار الجمال الخالد، نُردِّده ونُكرِّره، وإمَّا أن ننهض لنرتاد قيمًا جديدة لا تستسيغها أذواقنا القديمة.

في رأيي أنَّه لا داعي إلى الاختيار هنا ... يكفي أن نقبل الأمرين معًا ... نعيش مع الجمال الخالد التقليدي ونستمتع به، وننهض مع ذلك أحيانًا لنرتاد الجديد ونفتح صدورنا صابرين على متاعب غرابته وبذلك نضع أيدينا على الكسبين معًا.

لهذا عنيت بالفن التقليدي وبالفن الحديث معًا.

وأحببت الفن الرسمي والفن الشعبي معًا.

على أني عندما أذكر التجديد أو الابتكار لست أعني وجود قطيعة تامة بينه وبين الفن التقليدي السابق عليه، بل إنَّ الذي يحدث عادة هو أنَّ الجديد يخرج من القديم خروجًا أحيانًا طبيعيًّا سهلًا، وأحيانًا عنيفًا عسرًا كالولادة العسرة. ومع الحالتين بالضرورة حالة ثالثة لا تحسب في الحساب هي: السقط والمسخ غير الصالح للحياة، أمَّا كل ما يصلح للحياة والنمو، حتَّى وإنْ وُلِدَ قبل أوانه، فإنَّ له يومه ومستقبله، كوليد الشهر السابع. وحتَّى من يُولد بطريقة مفتعلة أو جراحية بشق البطن: أي بالعملية القيصرية، فقد يُنْتِج مولودًا عبقريًّا كيوليوس قيصر الذي وُلِدَ بها، المهم دائمًا أن يكون المولود كامل الأعضاء صالحًا للنمو والبقاء.

وفي مخلوقات الفن والأدب والعلم شواهد كثيرة من هذه الولادات المختلفة.

ومولودات العلم والفن والأدب كمولودات البشر، تخرج أولًا من بذرة آباء، ثمَّ تأخذ في الاستقلال بشخصياتها المُميَّزة كلما نمت واتصلت بظروف وبيئات وأجواء وتجارب مختلفة متباينة.

لذلك لا ينبغي أن يخدعنا أي فن حديث مهما يشذ مظهره أو يعنف منظره عن حقيقة أصله، فقد تكون بذرته في صلب فن عتيق بعيد المدى، ثمَّ أخذت هذه البذرة تنمو خفية وتتكيَّف، وتتطوَّر، وتنام وتستيقظ، وتمرض وتصح، وتضعف وتقوى، حسب الظروف والبيئات والأجواء المحيطة، متربصة بفرصتها للظهور والحياة.

وأعود إلى هذه المسرحية — وهي من قسمين: كبرتقالة شُطِرت نصفين — فأقول: إنِّي سرت فيها على طريقتي في «شهرزاد» رسول وفاق ووسيط سلام، بين المنطقة الشعبية والمنطقة الرسمية، مُحاولًا تحطيم الجدار القائم بينهما. وأعتقد أنَّ هذا الجدار قد حُطِّم نهائيًّا الآن، منذ أن دخلت «شهرزاد» لا كشخصية شعبية؛ بل كشخصية فكرية أيضًا في أدبنا الرسمي. (تعبير «الأدب الرسمي» في مقابلة «الأدب الشعبي» اسْتُعْمِل لأول مرة فيما أظن في كتاب «زهرة العمر» وهو تعبير غير دقيق، فأنا إذن المخطئ الأول إذا ثبت أنِّي كنت أول من استعمله، ولكنَّه على كل حال خير عندي من استعمال عبارة «الأدب الفصيح»، لأنَّ الأدب الشعبي عندي هو أيضًا فصيح. وربما كان من حيث الفن أفصح. كما أنَّ عبارة «الأدب الجدي» ليست كذلك موفقة لأنَّ الأدب الشعبي هو أيضًا جاد في كثير من المواضع والموضوعات، فلنستخدم إذن — مؤقتًا — عبارة «الأدب الرسمي» على الرغم من عدم الدقة).

هذا الأدب الرسمي إذن، بسقوط الجدار القائم بينه وبين الأدب الشعبي، سيتحوَّل هو والأدب الشعبي إلى أدب واحد ومنطقة واحدة ودولة واحدة، هي: «أدبنا». وفي دولة الأدب المُوحَّدة؛ لا تهم وحدة اللغة ولا وحدة الأسلوب، بقدر ما يهم وحدة الإلهام، ومنابع أدبنا اليوم واحدة، يستلهم منها الأديب الرسمي والشعبي — أو ما كانا يُسمَّيان كذلك — على السواء.

ولقد كنت في مسرحية «شهرزاد» أستلهم المنبع الشعبي في إطار الأسطورة الشعبية نفسها.

ولكنِّي في هذه المسرحية أستلهم المنبع الشعبي في إطار موضوع عصري.

وهكذا يثبت المنبع الشعبي حيويته وصلاحه للوحي والإلهام في شتى الاتجاهات.

فإذا تركنا «منبع الإلهام» إلى ما يُمكن أن أُسمِّيه «بؤرة الإحساس الفني» فإنَّ هناك اختلافًا آخر بين «شهر زاد» وهذه المسرحية.

فإنِّي أذكر عند كتابة «شهرزاد» أنَّ إحساسي كان موسيقيًّا.

ما كنت أتمثَّل أشخاصًا ولا أتصوَّر مواقف؛ بل أحس بموسيقى تطن في أذني؛ موسيقى من طراز عصفور النار «لسترافنسكي» ... تلك كانت بؤرة إحساسي التي تكوَّنت فيها تلك المسرحية ... وقد ظهر فعلًا استحالة إخراجها بغير الجو الموسيقي ... وقد وُضِع لها حتَّى الآن تأليفان موسيقيان ... أحدهما وضعه الموسيقي الفرنسي «موريس تيربيه» والآخر وضعه الموسيقي الإنجليزي «أورمان فورير كاي».

أمَّا هذه المسرحية فعلى العكس ... بؤرة إحساسي التي تكوَّنت فيها هي مسرحية بحتة ... فالذي تمثَّلته فيها هي العلاقات التشكيلية والتركيبية فوق خشبة مسرح بين أشخاص ومواقف وأزمنة وأمكنة وأصوات يتداخل بعضها في بعض تداخلًا ... ماديًّا، كما تتداخل الألوان والخطوط والأشكال في التصوير الحديث ... لذلك لست أنصح بأي التجاء إلى وسائل مساعدة ... كالموسيقى أو كالأضواء الحاصرة أو الكاشفة ... لستُ أريد هنا تفسيرات خارجية ... إنَّما الذي أُريده هو استخراج كل ما يُتوقَّع وما لا يُتوقَّع من نتائج فنية تشكيلية لهذه المقابلات المادية بين أحوال مختلفة لشخصٍ واحدٍ في مكانين معًا وفي زمانين معًا، دون أن يجعل ضوءًا يفصل بين الأمكنة، أو موسيقى تفصل بين الأزمنة. وليس هناك من أصوات خارجية إلَّا صوت حفلة «السبوع» و«أصوات القطار»، و«إنشاد الصبيان» يُمكن أن تحل محل الموسيقى المسرحية في فترات السكوت والتحرُّكات الصامتة، وتستخدم منفردة أو مختلطة — على حسب ما تُسفر عنه التجارب من نتائج.

إذن «بؤرة الإحساس» هنا هي «المسرح» نفسه، وما يُمكن أن يُوضع على خشبته من تركيبات وتشكيلات مستوحاة من «المنبع الشعبي».

وليس عجيبًا أن تتغيَّر «بؤرة الحساسية الفنية» هذا التغيير ... فما دمنا في صدد الفن الحديث، فهذه هي بؤرة الحساسية الفنية فيه.

فعلى الرغم من منابع الإلهام المختلفة في الفن الحديث كله، من: تصوير، ونحت، وعمارة، وموسيقى، ومسرح، وشعر أيضًا؛ فإنَّ بؤرة الحساسية الفنية فيه واحدة؛ هي حب البحث والكشف عن قيم فنية جديدة ... ووسائل تعبيرية أخرى ... إنَّ عصر البحث والكشف في العلم عن أسرار علمية جديدة، قد جعل الفن أيضًا يشعر بالغربة عن هذا العصر العجيب إذا لم ينهض هو أيضًا ليبحث ويكشف.

وهكذا دخل كل شيء اليوم المعمل.

ومن دخل المعمل للبحث أو الكشف فلا أحد يدري متى يخرج ... وأغلب الظن أنَّه لن يخرج أبدًا ... لأنَّه لا نهاية للبحث والكشف.

وليست هذه مأساة هذا العصر وحده ... إنَّها مأساة الفنان في كل عصر.

وعندما قال «جوته» إنَّ «الفن طويل، والحياة قصيرة» إنَّما كان يعني ذلك بدون شك.

إنِّي أتمثَّل الفنان في نهايته قد دخل عليه عزرائيل ومعه أبولون، عزرائيل يقول له: «إنَّك انتهيت»! ... وأبولون يقول له: «إنَّك لم تنته من عملك بعد!»

وإنِّي اليوم وقد اعتل قلبي أتسمَّع في كل لحظة دقاته خشية أن تكون هي طرقات هذين السيدين المحترمين، يعلنان تشريفهما بالحضور!

ت. ا

القسم الأول

(لا توجد مناظر في هذه المسرحية، ولا توجد فواصل بين الأزمنة والأمكنة ... فالماضي والحاضر والمستقبل أحيانًا توجد كلها في نفس الوقت ... والشخص الواحد يوجد أحيانًا في مكانين على المسرح، ويتكلَّم بنفس صوته مرتين في نفس الوقت. كل شيء هنا مُتداخل في كل شيء ... ولا يوجد أثاث ثابت. كل شخص في المسرحية يظهر حاملًا بيده أثاثه ولوازمه ويخرج بها بعد الانتهاء منها ... وهكذا يظهر ضابط المباحث أو الشرطة «المُحقِّق» حاملًا بيمينه كرسيه وملفه ... وتظهر خلفه «الخادم العجوز» تحمل منضدة خفيفة تضعها أمامه فينشر عليها أوراقه.)

المُحقِّق: متى اختفت سيدتك بالضبط؟
الخادمة: ساعة عودة السحلية إلى جحرها.
المحقق: تقصدين المغرب؟
الخادمة: لم أبصر الشمس تغرب.
المحقق: ومتى تعود السحلية إلى جحرها؟
الخادمة: عندما يظهر سيدي من تحت الشجرة.
المحقق: ومتى يظهر سيدك من تحت الشجرة؟
الخادمة: عندما تُنادي عليه سيدتي.
المحقق: ومتى تنادي عليه سيدتك!
الخادمة: عندما يرطب الجو في الجنينة.
المحقق: ومتى يرطب الجو في الجنينة؟

الخادمة: عندما تقول له سيدتي ذلك.
المحقق: ومتى تقول له سيدتك ذلك؟
الخادمة: عندما أفرغ من عملي هنا وأتأهَّب للعودة إلى منزلي.
المحقق: ولماذا تعودين إلى منزلك؟
الخادمة: لأنِّي أبيت فيه دائمًا مع زوجي العاجز الكفيف الذي أجري عليه.
المحقق: وعندما تأهَّبت للعودة إلى منزلك يوم الحادث كانت سيدتك هنا؟
الخادمة: لم تكن هنا.
المحقق: أين كانت إذن؟
الخادمة: كانت قد خرجت.
المحقق: قبل أن تنادي زوجها كالمعتاد؟
الخادمة: نعم ... قبل أن تناديه ... تركته في الجنينة.
المحقق: لماذا؟
الخادمة: قالت إنَّها لن تتأخَّر أكثر من نصف ساعة ... مسافة الطريق ... تشتري بكرة جديدة من خيط الغزل ... تنسج به ثوبًا صغيرًا لبنتها.
المحقق: بنتها؟
الخادمة: نعم ... بنتها بهية.
المحقق: وأين هي بنتها بهية؟
الخادمة: لم تولد.
المحقق: لم تولد؟! ... ومتى ستُولَد؟
الخادمة: لن تولد.
المحقق: وكيف تعرفين أنَّها لن تُولَد؟
الخادمة: هذا شيء معروف.
المحقق: ولكنِّي أنا لا أعرف ... أخبريني!
الخادمة: كانت ستُولَد من أربعين سنة ... ولكنَّها لم تُولد.
المحقق: ولماذا لم تولد؟
الخادمة: أسقطتها في شهرها الرابع ... عملًا بكلام زوجها.
المحقق: زوجها هذا الذي في الحديقة؟
الخادمة: زوجها الأول المُتوفَّ.

المحقق: وزوجها الحاضر غير المُتوفى لم ينجب منها أولادًا؟

الخادمة: زوجها الحاضر هذا تزوجها وقد جاوزت الخمسين ... منذ تسع سنوات كانت قد قطعت الخلف.

المحقق: وما دامت قطعت الخلف ... ولم تلِد ... ولن تلِد ... فلماذا تنسج ثوبًا لبنتها التي لم تُولَد ولن تُولَد؟

الخادمة: إنَّها تراها وُلِدَت كل يوم، وتُولد كل يوم.

المحقق: وهل هي تخرج من البيت كثيرًا؟

الخادمة: قليلًا ... في النادر ... لشراء حاجة من الحاجات.

المحقق: وتعود دائمًا ... دون تأخير؟

الخادمة: دون تأخير ... مسافة الطريق.

المحقق: وهذه المرة خرجت ولم تعد؟

الخادمة: لم تعد.

المحقق: منذ ثلاثة أيام ... قبيل المغرب تقريبًا؟

الخادمة: نعم ... قبيل المغرب.

المحقق (ينظر في ساعته): بعد ساعة يكون قد مضى على اختفائها نحو ثلاث ليال ونهار.

الخادمة: لم يحدث لها هذا من قبل.

المحقق: لم يحدث أن باتت ليلة في الخارج؟

الخادمة: أبدًا ... ولا نصف ليلة؟

المحقق: أأنتِ في الخدمة هنا منذ زمن طويل؟

الخادمة: منذ تسع سنوات ... منذ زواجها من بهادر أفندي هذا ... وكان يومئذٍ في الوظيفة.

المحقق: وماذا تعرفين عن أحوال المختفية؟

الخادمة: الست بهانة معروفة في الناحية، ومنزلها الصغير هذا من أوائل المنازل المبنية في ضاحية الزيتون كلها ... ورثته عن زوجها الأول السمسار.

المحقق: أريد معلوماتك الشخصية عنها.

الخادمة: معلوماتي الشخصية؟

المحقق: نعم ... ما تلاحظينه أنتِ شخصيًّا عليها.

الخادمة: كل عقلها في بنتها.

المحقق: وسيدك؟ ... بهادر أفندي ... ما رأيكِ فيه؟

الخادمة: كل عقله في شجرته.

المحقق (ناظرًا جهة الحديقة)**:** شجرته؟ ... هذه؟

الخادمة: وهل توجد غيرها؟

المحقق: حقًّا لا توجد غيرها ... في هذا الشبر من الأرض الذي تُسمُّونه الحديقة! ... أظنها شجرة برتقال؟!

الخادمة: نعم شجرة برتقال ... وفي أسفل جذعها المسكن العامر.

المحقق: المسكن العامر؟

الخادمة: نعم ... مسكن الشيخة خضرة!

المحقق: الشيخة خضرة مَنْ؟!

الخادمة: السحلية إيَّاها ... هكذا يسميها هو ... لم أرها أنا قط ... ولكنَّه هو يراها كل يوم.

المحقق: وخلاف الشجرة والسحلية ماذا يعمل؟

الخادمة: لا شيء ... إنَّه الآن في المعاش ... ترك السكة الحديد من خمس سنين.

المحقق: وسيدتكِ؟ ليس لها أقارب يُمكن أن تذهب إليهم؟

الخادمة: لا ... أبدًا ... مقطوعة من شجرة!

المحقق: ولا معارف؟

الخادمة: ولا معارف.

المحقق: أنتِ مُتأكِّدة؟

الخادمة: كل التأكُّد ... طول مدة وجودي هنا لم أبصر زائرًا يزورهم ولا هم زاروا أحدًا.

(جرس التليفون يدق.)

المحقق: هذه إشارة تليفونية أنتظرها.

الخادمة (وهي تتحرَّك مسرعة)**:** لحظة واحدة! ... سأحضر التليفون!

(تعود بعد قليلٍ بجهاز ذي حبلٍ طويل.)

المحقق (في التليفون): ألو ... ألو! ... نعم ... أنا ... هذا غريب! ... لا شيء على الإطلاق! ... في جميع أقسام البوليس؟ ... أنتم واثقون؟ ... كل المستشفيات؟ ... والإسعاف؟ ... بحث دقيق؟ لا أثر؟! ... شكرًا.

(يضع السماعة والجهاز فوق المنضدة.)

الخادمة: لم يجدوا أي أثر؟!

المحقق: لا.

الخادمة: مسكينة ... الست بهانة.

المحقق: ألم يتصل بها أحد قبل اختفائها بهذا التليفون؟

الخادمة: أبدًا.

المحقق: وهي؟ ... ألم تتصل بأحد؟

الخادمة: أبدًا ... هذا التليفون من النادر استعماله منذ أن أُحيل بهادر أفندي إلى المعاش ... طلب من المصلحة إدخاله وهو في الخدمة، عندما كانوا يستدعونه ليلًا للورديات، أو نهارًا وهو في الراحة لعمل مفاجئ، ومن يومها قلَّما أسمع جرسه يدق.

المحقق: والعلاقة بين الزوجين؟

الخادمة: العلاقة؟

المحقق: نعم ... هل كانت بينهما مشاجرات مثلًا أو مشاحنات أو خلافات.

الخادمة: أبدًا ... أبدًا ... منذ وجودي هنا لم أرهما قط اختلفا على شيء.

المحقق: لم يختلفا قط؟

الخادمة: ولا مرة.

المحقق: ولكن الحال بين الزوجين لا يخلو من ...

الخادمة: إلَّا الحال بين هذين الزوجين!

المحقق: أهما إلى هذه الدرجة ...

الخادمة: نعم ... في غاية الوفاق ... أتُريد أن ترى بعينك كيف يعيشان؟

المحقق: بالطبع أُريد ... لكن كيف يتسنَّى لي ذلك؟

الخادمة: الأمر بسيط ... انظر هناك وأنت تراهما.

المحقق: أين؟

الخادمة (تُشير بيدها): هناك ... في هذا الركن ... قرب النافذة المُطلة على الحديقة ... ها هي ستي بهانة في ثوبها الأخضر الذي لا تُغيِّره ... تجلس على كرسيها المعتاد!

(تظهر بالفعل عندئذٍ الزوجة ... وهي في نحو الستين، شعرها أشيب، وثوبها أخضر، تحمل كرسيها وتجلس عليه ... وتأخذ في شغل الإبرة تنسج ثوبًا.)

الزوجة (تلتفت إلى حيث يُفْتَرَض وجود النافذة): اطلع يا بهادر! ... اترك شجرتك الآن وادخل! ... الجو رطب!

الزوج (وهو يدخل حاملًا أدوات الحديقة): أعرف ... عندما تبدأ الرطوبة في الجو تدخل الشيخة خضرة مسكنها ... لكن الذي لا أعرفه هو أنَّ الرياح اليوم ساكنة، ومع ذلك تسقط بعض ثمار البرتقال! ... ما الذي أسقطها؟!

الزوجة (وهي مشغولة بأعمال إبرتها): أنا التي أسقطتها ... كانت أول ثمرة ... وأنا التي أسقطتها بيدي ... لم يكن وقتئذٍ يُريدها ... بسبب الفقر ... لم يكن يملك شيئًا بعد ... سوى دُكَّان البقالة الصغير ... لم يكن بعد قد اشتغل بسمسرة الأراضي في هذه الناحية المقفرة يومذاك ... قال لي: اصبري! ... لا تربكيني الآن بالخلف.

الزوج (وهو يُنظِّف أدوات الحديقة): وهذا هو الذي يربكني حقًّا: أن تكون الرياح اليوم ساكنة ومع ذلك ...

الزوجة: ومع ذلك سمعت كلامه وفعلتها ... فعلتها بنفسي ... وفي نفسي ... وهبَّت رياح السعد بعد ذلك ... وجاء المال ... وأنشأنا هذا المنزل الصغير وهذه الحديقة.

الزوج: هذه الحديقة لا تتعرَّض لمساقط الرياح ... ومع ذلك عندما أزهرت شجرة البرتقال خفت على الزهر ... لكن الله سلَّم ولطف.

الزوجة: نعم ... الله سلَّم ولطف ... واجتزنا أيام الفقر ... وعندما جاء الفرج طلبنا الخلف ... لكن هيهات! ... إنَّه السقط الأول ولا شكَّ ... كان قد أثَّر في رحمي ... نعم هو السقط الأول!

الزوج: نعم ... هذا السقط الذي حدث، ليس على كل حال، بشيء ذي بال ... إنَّه لا يعدو أن يكون ثلاث أو أربع ثمرات من البرتقال الأخضر الصغير في حجم البندقة.

الزوجة: كان السقط في الشهر الرابع ... كانت البنت قد تكوَّنت وصارت في حجم الكف ... إنِّي واثقة من ذلك.

الزوج: نعم ... إنِّي واثق من ذلك ... لأنَّ الأغصان كانت تتحرَّك ببطء شديد.

الزوجة: نعم ... إنَّها كانت تتحرَّك في بطني ... شعرت بحركتها حركة بنت ... لأنَّ حركة البنت يُمكن أن تُعْرَف، ولأنِّي كنت أيضًا أُريدها بنتًا.

الزوج: أنا أيضًا كنت أُريد هذه الحركة البطيئة ... أو عدم الحركة على الإطلاق ... لأنَّ الأغصان الساكنة تمنع الضرر عن الزهر أو الثمر في المرحلة الأولى.

الزوجة: نعم ... في المرحلة الأولى من الحمل كنت أعرف الاسم الذي سأُطلقه عليها: «بهية»، وكنت أعرف أنَّها ستكون رائعة المنظر قوية البنية ... هذا شيء يُمكن أن يُعْرَف ... أليس كذلك؟

الزوج: بالطبع ... هذا شيء يُمكن أن يُعْرَف من منظر الثمار وهي معقودة كالعناقيد فوق غصنها ... قوية مُتماسكة كأنَّها مُصمِّمة على البقاء والنمو.

الزوجة: النمو ... نعم ... يا ليتني تركتها للنمو ... هل تعرف يا عزيزي لو كنتُ تركتها للنمو ما الذي كان سيحدث؟

الزوج: أعرف ما يحدث جيِّدًا ... كلما ازداد النمو اشتدت الحاجة إلى التغذية الجيِّدة.

الزوجة: نعم ... التغذية الجيدة ... وهذا ما كان يشغل بالنا في ذلك الوقت.

الزوج: وهذا ما يشغل بالي الآن ... لكي تنمو الثمار نموًّا عظيمًا لا بُدَّ من تسميد الشجرة بالسماد الجيِّد ... وأين لي بثمن السماد الجيِّد؟ ... معاشي كما تعلمين يكاد يكفي نفقاتنا ... مفتش قطار أربعين سنة وأخرج بما يقينا شر الحاجة لا أكثر ... ولولا منزلُكِ هذا الصغير الذي يئوينا ... وهذه الحديقة الجميلة التي لا تتسع لأكثر من شجرة لما عرفنا للحياة طعمًا ... ومع ذلك فبحمد الله وبركته ما من برتقال في أي شجرة أُخرى يُمكن أن ينمو مثل هذا النمو العظيم.

الزوجة: إنِّي واثقة من هذا النمو العظيم!

الزوج: أليس كذلك؟ ... انظري! ... انظري! (يُشير إلى الشجرة.)

الزوجة: أعرف ... أعرف ... إنِّي واثقة من نموها العظيم ... لو أنِّي فقط تركتها ... انظر ... انظر! ... ها هي في يومها السابع ... وكأنَّها طفلة عمرها سنة ... ها هو الاحتفال «بسبوعها»! ... انظر ... انظر ... الشموع! ... الشموع! ... اسمع! ... اسمع! ... دق الهون! ... دق الهون! ... أتسمع ترديدهم؟

«برجلاتك ... برجلاتك
حلق دهب في وداناتك»
«يا رب يا ربنا تكبر وتبقى قدنا
برجلاتك ... برجلاتك»

(يُسمَع بالفعل صدى حفلة «سبوع» بكلماتها وصخبها ودق الهون.)

الزوج (بعد انتهاء أصوات الحفلة)**:** جرس المحطات ... وجلبة الرُّكَّاب ... وضجيج القطارات! ... دائمًا في أذني!

الزوجة: نعم في أذنها ... رأيت الحلق الذهب في أذنها؟

الزوج: في أذني ... نعم ... دائمًا هذا الضجيج! ... وأنا الذي حسبت أنِّي استرحت بعد المعاش.

الزوجة: لقد استرحت الآن حقًّا وأنا أشهد حفلة «سبوعها»، ما رأيك في ثوبها الأخضر ... هذا الذي نسجته لها بيدي؟ ... ألم يكن بديعًا على جسمها الصغير؟!

الزوج: جسمها الصغير يكسوه دائمًا هذا الثوب الأخضر ... صيفًا وشتاءً ... حتَّى عندما تتجرَّد الشجرة من ورقها الأخضر تظل هي مُتألِّقة في اخضرارها، وهي تهبط إلى مسكنها في أسفل الشجرة.

الزوجة: نعم ... نعم يا عزيزي ... ما أجمل بهية في ثوبها الأخضر على جسمها الصغير!

الزوج: إنِّي أراها دائمًا جميلة في جسمها الصغير المكسو بالاخضرار الدائم ... وفي عينيها اللامعتين بهذا البريق ... العجيب! ... إنَّها رائعة حقًّا الشيخة خضرة!

الزوجة: نعم ... إنَّها رائعة حقًّا بنتي بهية!

الزوج: نعم ... نعم.

الزوجة: نعم ... نعم.

(صمت عميق بين الزوجين.)

المحقق (للخادمة)**:** أهما يتحادثان هكذا دائمًا؟!

الخادمة: نعم ... نعم.

المحقق: نعم ... نعم ... (للخادمة) شكرًا ... شكرًا!

الخادمة: أنصرف؟!

المحقق: انصرفي!

(الخادمة تنصرف ... والمُحقِّق يلتفت نحو الحديقة.)

المحقق (مناديًا)**:** يا سيد بهادر!

الزوج (من الخارج): أفندم!
المحقق: تسمح لحظة؟!
الزوج (يظهر وهو ينفض يديه من تراب الحديقة): مرة أخرى.
المحقق: نعم ... بضعة أسئلة أخرى.
الزوج: قبل كل شيء عندي شيء أقوله ... شيء عجيب غريب ... في غاية الغرابة.
المحقق: شيء يتعلَّق طبعًا بحادث الاختفاء؟
الزوج: نعم الاختفاء.
المحقق: تفضَّل! ... تكلَّم!
الزوج: لقد اختفت ... أيُمكن تصوُّر هذا؟!
المحقق: هذا شيء معروف منذ أيام.
الزوج: ولكنِّي لم ألاحظ ذلك إلَّا اليوم.
المحقق: لم تلاحظ اختفاء زوجتك إلَّا اليوم؟!
الزوج: لا أتكلَّم عن زوجتي.
المحقق: عمَّن إذن؟!
الزوج: عن الشيخة خضرة!
المحقق: آه ... السحلية!
الزوج: اختفت هي الأخرى! ... اختفت!
المحقق: كيف عرفت؟
الزوج: ليست موجودة في الحديقة.
المحقق: هل أنت واثق؟
الزوج: كل الثقة.
المحقق: كيف يمكنك التأكُّد؟
الزوج: لم أبصرها طول اليوم ... راقبت مسكنها ... لم تخرج ولم تدخل ... قطعًا هي ليست موجودة في مسكنها ... ولا في الحديقة كلها، هذه أول مرة يحدث فيها ذلك لها ... منذ ... منذ تسع سنوات.
المحقق: وهل أنت تعرف هذه السحلية منذ تسع سنوات؟!
الزوج: نعم ... منذ تسع سنوات ... منذ وضعت قدمي في هذا المنزل ... في هذه الحديقة!
المحقق: هي بذاتها؟

الزوج: نعم ... هي بذاتها.

المحقق: وهل يمكن لسحلية صغيرة كهذه أن تعيش تسع سنوات؟

الزوج: لقد عاشت ... وإني أعرفها وأراها كل يوم منذ سنوات.

المُحقِّق: ربما كانت سحلية أخرى.

الزوج: لا توجد سحلية أخرى ... إنَّها هي نفسها ... لم أبصر قط هنا سحلية أخرى.

المحقق: ولكن من الممكن أن تُبْصِر هنا سحلية أخرى.

الزوج: لم يحدث قط ... لم أُبْصِر غير هذه السحلية ... لم أُبْصِر معها قط سحلية أخرى ... لم أبصر قط اثنتين معًا ... إنَّها دائمًا واحدة ... هي ذاتها ... لم تتغيَّر ... إنِّي واثق من ذلك ... إنَّها هي هي ... إنِّي أعرف حركاتها ونظراتها ولفتاتها ... وملامحها أيضًا.

المحقق: ملامحها؟!

الزوج: نعم ... ملامحها ... منذ تسع سنوات وأنا أتأمَّلها كل يوم ... كيف إذن لا أعرف ملامحها ... كيف لا أصادقها ... لقد اعتدت وجودها ... اعتدت قربها ... إنِّي أحبها.

المحقق: تحبها؟!

الزوج: الآن نعم ... عندما ترى شيئًا بقربك كل يوم ... على مدى تسع سنوات ... لا بُدَّ أن تعرفه وأن تُحبه ... أليس كذلك؟ ... لست أنكر: لم يكن الأمر كذلك عندما وقع نظري عليها أول مرة ... يومذاك رأيتها قبيحة المنظر، مرعبة تثير في النفس التقزُّز ... هممت بقتلها ... ثمَّ طرحت هذه الفكرة مؤقتًا ... تركتها مؤقتًا تعيش ... ثمَّ صرت أراها كل يوم ... تخرج من مسكنها وتعود إليه في أوقات منتظمة لم ألبث أن اعتدتها ... وهكذا ارتبطت بها ... ورتَّبت حياتي في الحديقة على حياتها ونظامها وعاداتها.

المحقق: هذا حقًّا عجيب.

الزوج: نعم ... إنَّها أصبحت مخلوقًا يمت إليَّ بصلة القرابة ... لا تعجب إذن أن يكون اختفاؤها مؤلمًا لي.

المحقق: نعم ... نعم.

الزوج: نعم ... كلما تذكرت اليوم أنِّي كنت سأقتلها يومًا ما ... ولكن هذا طبيعي أن أقتلها يومذاك ... لأنِّي كنت أجهلها.

المحقق: فكرة القتل إذن خطرت لك؟!

الزوج: فعلًا.

المحقق: وبأي شيء كنت ستنفِّذ القتل؟

الزوج: قتل مَنْ؟ ... زوجتي؟

المحقق: زوجتك؟! ... أأنا ذكرت زوجتك؟! ... آه ... فليكن! ... زوجتك إذن ... نعم زوجتك؟

الزوج: ولكن الحديث كان عن السحلية.

المحقق: كفى الآن حديثًا عن السحالي ... لنتحدَّث عن زوجتك ... هل شعرت يومًا برغبة في قتلها؟

الزوج: طبيعي.

المحقق: ماذا تقول؟!

الزوج: أقول إنَّ هذا شعور طبيعي ... ألم تُفكِّر أنت يومًا في قتل زوجتك؟

المحقق: وأنت؟ ... هل فكَّرت؟

الزوج: إنِّي أسألك أنت.

المحقق: بل أنا الذي يسألك.

الزوج: أجبني أنت أولًا.

المحقق: أنا الذي يسأل وأنت الذي تُجيب ... أرجوك! ... لا تقلب الأوضاع!

الزوج: يهمني أن أعرف شعورك.

المحقق: وأنا يهمني أكثر منك — وبحكم وظيفتي الرسمية — أن أعرف شعورك أنت ... أرجوك ... أجبني ... ألم تُفكِّر يومًا في قتل زوجتك؟

الزوج: لماذا تُريدني أن أقتل زوجتي؟

المحقق: أنا لا أُريد ... أنت الذي قلت.

الزوج: ماذا قلت؟

المحقق: قلت إنَّه من الطبيعي أن تُفكِّر في قتل زوجتك.

الزوج: نعم ... طبيعي بالنسبة لي ولك.

المحقق: دعك مني الآن ... تحدَّث عن نفسك!

الزوج: رأيي إذن أنَّ هذا التفكير طبيعي عندما يُضايقني من زوجتي شيء.

المحقق: وطبعًا ضايقك منها شيء؟

الزوج: لا.

المحقق: إنِّي أشك.

الزوج: ولماذا تشك؟
المحقق: لأنِّي رأيتكما الآن بعيني ... وسمعتكما تتحادثان.
الزوج: ألا تُريد من زوجين أن يتحادثا؟!
المحقق: ليس هذا الطراز من الحديث!
الزوج: وما المانع؟
المحقق: المانع أنَّ هذا شيء لا يُمكن أن يحدث.
الزوج: بالعكس ... هذا شيء يحدث دائمًا بين كل زوجين ... في كل بيت ... عند الجميع ... عندك مثلًا ...
المحقق: عندي؟! ... لا يا سيدي!
الزوج: ألا يحدث هذا عندك؟!
المحقق: لو كان هذا يحدث عندي لكنت ...
الزوج: لكنت قتلت زوجتك؟
المحقق: لم أقل هذا.
الزوج: بل قل! ... قلها بصراحة ... كنت تقتلها؟!
المحقق: أقتل من؟
الزوج: زوجتك طبعًا.
المحقق: من فضلك ... نحن الآن في زوجتك أنت.
الزوج: وزوجتك؟
المحقق: يا سيدي أرجوك ... لا شأن لك بزوجتي ... زوجتي لم تزل في منزلها بخير!
الزوج: فليكن! ... أنت إذن تعذرني ... على الأقل!
المحقق: أعذرك؟
الزوج: هذا هو مفهوم الكلام.
المحقق: إذن أنت قتلتها بالفعل.
الزوج: هل أنت متأكد؟
المحقق: تقريبًا.
الزوج: وهل تعرف أين جثتها؟
المحقق: هذه أنت بها أدرى بالطبع.
الزوج: ليس من الصعب عليك أن تعرف.
المحقق: أفضِّل أن تقول لي أنت.

الزوج: المكان سهل وطبيعي جدًّا ... ويدهشني أنَّك لم تعرفه!

المحقق: أين؟

الزوج: خمِّن؟

المحقق: كيف أستطيع؟

الزوج: ألا تستطيع أن تعرف مكانًا يصلح لوضع جثتها؟!

المحقق (ينظر حواليه)**:** أين؟ ... قل لي أنت؟!

الزوج: قُل شيئًا على سبيل التخمين!

المحقق: التخمين؟!

الزوج: نعم ... ألا يُمكنك أن تُخمِّن؟!

المحقق: أرجوك! ... لسنا الآن في مجال الفوازير!

الزوج: غلب حمارك؟!

المحقق: نعم.

الزوج (مشيرًا إلى الحديقة)**:** تحت الشجرة.

المحقق (ملتفتًا إلى جهة الشجرة)**:** شجرة البرتقال؟!

الزوج: ما من شك أنَّ هذا يَسُرُّها ... أن يتحوَّل جسدها كله إلى سماد ... سماد من نوع جيِّد ... يُغذِّي هذه الشجرة، فتنتج برتقالًا عظيم النمو ... وهي التي تهتم اهتمامًا بالغًا بالنمو العظيم.

المحقق: حقًّا ... كان يجب أن أهتدي إلى هذا.

الزوج: قلت لك خمِّن وابحث قليلًا وأنت تهتدي من تلقاء نفسك!

المحقق: إذن أنت مُعترف؟

الزوج: معترف بماذا؟

المحقق: بأنَّ جثَّتها مدفونة تحت هذه الشجرة؟

الزوج: ألست ترى معي أنَّ هذا خير مكان لوضعها فيه؟!

المحقق: من حيث المكان هو بدون شكٍّ مكان جميل.

الزوج: وسوف تتحوَّل فيه إلى زهر يانع وثمر رائع ... أيُمكن لجسد آدمي أن يطمع في أحسن وأنفع من هذا؟

المحقق: من هذه الجهة صحيح.

الزوج: إذن أنت من رأيي؟

المحقق: من حيث هذا التصوُّر الشاعري لا بأس.

الزوج: اتفقنا إذن!

المحقق: من حسن الحظ!

الزوج: حقًّا إنَّه لمن حسن الحظ أن نكون متفاهمين هكذا في النظر إلى الأشياء.

المحقق: وبفضل هذا التفاهم استطعنا أن نصل إلى نتائج سريعة، ما كان يحتمل الوصول إليها قبل أسابيع وربما شهور.

الزوج: الحمد لله!

المحقق: على أنَّ هذا النجاح يرجع الفضل في معظمه إلى معاونتك!

الزوج: معاونتي؟

المحقق: بدون شك ... وهل كان في مقدور أحد أن يعرف مكان الجثة بهذه السرعة؟! (ينهض.)

الزوج: أتنصرف؟!

المحقق: أريد فأسًا! ... عليَّ بفأس!

الزوج: فأس؟! ... تصنع بها ماذا؟!

المحقق: نحفر بها طبعًا.

الزوج: تحفر؟!

المحقق: نعم ... تحت هذه الشجرة.

الزوج: تحفر تحت شجرة برتقالي؟! ... أجننت يا حضرة المحقق؟!

المحقق: إني آسف ... ولكن هذا ضروري.

الزوج: وما وجه الضرورة؟

المحقق: لا يُمكن مباشرة عملنا إلَّا بالحفر ... هذا بديهي!

الزوج: أتريد أن تتلف شجرتي؟! ... هل تعرف ماذا تعني هذه الشجرة بالنسبة إليَّ؟

المحقق: أعرف.

الزوج: بل بالنسبة إلى حياتي كلها؟!

المحقق: أعرف ... ولكن المسألة تتعلَّق بجثة وجريمة قتل!

الزوج: هي جثتي ... جثتي أنا ... والفأس التي تُصيب جذع الشجرة ستصيب رقبتي ... أتفهم ذلك؟ ... أتفهم؟!

المحقق (بعنفٍ): الفأس! ... أين الفأس؟!

الزوج (يُحاول أن يُجْلِسَهُ): إنَّك تقتلني ... إنَّك ستقتلني ... إنَّك ترتكب جريمة قتل!
المحقق: أنت المُرتكب لجريمة قتل! ... قتل زوجتك!
الزوج: قتل زوجتي؟! ... ما هذا الجنون يا حضرة المحقق؟!
المحقق: ألم تعترف بذلك الآن؟
الزوج: أنا اعترفت؟!
المحقق: ألم تقل الآن إنَّك دفنتها تحت هذه الشجرة بعد أن قتلتها؟!
الزوج: لقد تحدَّثت عن الدفن ... ولكنِّي لم أتحدَّث عن القتل.
المحقق: تقصد أنَّك دفنتها ولكنَّك لم تقتلها؟
الزوج: لم أقتلها.
المحقق: ولكنَّك دفنتها.
الزوج: هذه مسألة أخرى بيني وبينها ... ولكني لم أقتلها.
المحقق: ومن الذي قتلها؟!
الزوج: أهي قُتِلت؟
المحقق: أنت أدرى ما دامت قد دُفِنَت!
المحقق: أهي حقًّا دُفِنَت؟
المحقق: اسمع! ... كنت صبورًا معك أكثر مِمَّا ينبغي ... وأفسحت صدري أكثر مِمَّا ينبغي! ... ولكنِّي الآن لم أعد أحتمل هذا العبث بي إلى هذا الحد ... أفاهم؟
الزوج: عُد إلى هدوئك يا حضرة المحقق ... وثِقْ كل الثقة في حسن نيتي! ... لنتحادث كما كنَّا نتحادث منذ لحظة بروح التفاهم ... وأنا على استعداد لمصارحتك بكل شيء.
المحقق: وهو كذلك ... صارحني بكل شيء.
الزوج: قل لي أولًا: لماذا تتهمني بقتل زوجتي؟!
المحقق: أحوالك كلها تدل على ذلك.
الزوج: ولماذا أقتلها؟
المحقق: لسببٍ واضحٍ جدًّا: حياتك معها لا تُطاق.
الزوج: حياتي معها لا تُطاق؟
المحقق: بدون شك ... لا يُمكن أن تطاق حياة مع امرأة كهذه.
الزوج: هذا رأيك أنت ...
المحقق: ورأي كل إنسان! ... ما من شخص يستطيع احتمال الحياة مع مثل هذه المرأة.

الزوج: ولكنِّي أنا أعيش معها في راحة وهناء منذ تسع سنوات ... لم يحدث بيننا خلاف على شيء.

المحقق: ولم يحدث كذلك بينكما اتفاق على شيء.

الزوج: لم أُلاحظ ذلك.

المحقق: ولكنِّي أنا لاحظت.

الزوج: ولكنِّي أنا لا أشكو من شيء.

المحقق: عدم شكواك ليست دليلًا على الرضا.

الزوج: دليل على ماذا إذن؟

المحقق: على اليأس.

الزوج: بالعكس ... أنا لا أعيش إلَّا بالأمل.

المحقق: بأمل الخلاص من زوجتك.

الزوج: ثق أنِّي لم أُفكِّر في الخلاص منها.

المحقق: ليس من الضروري أن تكون قد فكَّرت تفكيرًا مباشرًا صريحًا ... يكفي أن تمرَّ بخاطرك الفكرة في لحظة من اللحظات.

الزوج: ربما ... ولكنِّي سريع النسيان لخواطري.

المحقق: يُخيَّل إليك ذلك ... ولكن الفكرة تبقى دائمًا ... كالبذرة تعمل عملها في الخفاء.

الزوج: وما هو هذا العمل الذي في الخفاء؟

المحقق: البحث عن طريقة للخلاص.

الزوج: الخلاص من زوجتي؟ ... ولكنِّي لا أريد ذلك.

المحقق: إنَّك تريد ... وتسعى لما تريد دون أن تشعر أو تجهر.

الزوج: ولماذا أفعل ذلك؟!

المحقق: لأنَّك زوج غير سعيد.

الزوج: بل إنِّي زوج سعيد.

المحقق: هذا غير صحيح.

الزوج: أؤكد لك أنِّي سعيد.

المحقق: وأنا أؤكد لك أنَّك غير سعيد.

الزوج: كيف تُؤكِّد لي؟ ... هل الزوج أنت أو أنا؟!

المحقق: لا يهم ... هناك مقياس للسعادة الزوجية لا يكذب.

الزوج: ما هو؟

المحقق: التفاهم.

الزوج: ونحن متفاهمان؟

المحقق: هل هذا الذي رأيته وسمعته بينكما منذ لحظة يُمكن أن يُسمَّى تفاهمًا؟!

الزوج: وماذا تُسمِّيه إذن؟

المحقق: أُسميه ببساطة عدم تفاهم.

الزوج: وأنا أسميه التفاهم.

المحقق: لا يُمكن أن يكون هذا هو التفاهم.

الزوج: أنا وأنت إذن غير متفاهمين على التفاهم.

المحقق: لأنَّك تسمي الأشياء بغير أسمائها.

الزوج: لا تهمني الأسماء ... أنا وزوجتي متفاهمان وبيتنا قائم على التفاهم.

المحقق: هذا تزييف لمعاني الأشياء.

الزوج: معاني الأشياء؟! ... ما هي هذه المعاني؟ ... أنت تريدني أن أرى التفاهم أو السعادة كما تفهمها أنت لا كما أفهمها أنا.

المحقق: كما يفهمها كل الناس.

الزوج: وما شأني أنا بكل الناس؟ ... أنا أتكلَّم عن نفسي ... ليس كل الناس أزواجًا لزوجتي ... أنا وحدي الزوج!

المحقق: أنت إذن زوج سعيد؟!

الزوج: جدًّا.

المحقق: وهي! ... أهي زوجة سعيدة؟!

الزوج: جدًّا.

المحقق: إذن لماذا تركت بيت الزوجية واختفت؟!

الزوج: هذا ما لا أعرفه.

المحقق: أنا أقول لك ... هناك احتمالات كثيرة: إمَّا أن تكون أصيبت في حادث ... وهذا ثبت عدم وقوعه من إفادات المستشفيات وأقسام البوليس ... وإمَّا أن تكون اختطفت ... وهذا غير محتمل ... إذن مَنْ المجنون الذي يختطف امرأة عجوزًا فقيرة لا تصلح لشيء؟! ... وإمَّا أن تكون قد ذهبت إلى أحد الأقارب أو المعارف ... وهذا أيضًا غير محتمل ... إذ

ثبت عدم اتصالها بمعارف ولا أقرباء ... وإمَّا أن تكون هناك جريمة قتل ... وأنت تنكر ذلك الآن.

الزوج: طبعًا أنكر.

المحقق: طبعًا ... إذن ما هو تعليلك لهذا الاختفاء؟

الزوج: لا أدري له من تعليل.

المحقق: لا بُدَّ أن يكون هناك تعليل.

الزوج: وما هو التعليل لاختفاء الشيخة خضرة؟

المحقق: دعنا الآن من هذه السحلية.

الزوج: هذا مهم جدًّا ... إذا وجدنا التعليل لاختفائها وجدنا التعليل لاختفاء زوجتي؟

المحقق: وما هي العلاقة؟

الزوج: هذا شيء يطول شرحه.

المحقق: اشرح.

الزوج: وما جدوى ذلك ... إنَّك لن تفهمني ... إنَّك تفهم فقط ما تراه مفهومًا لك ... ومهمتك أن تُلقي أسئلة مُحدَّدة المعنى ... وتُريد أن تتلقَّى عنها أجوبة مُحدَّدة المعنى ... وأنا منذ زمن طويل لم أُوجِّه أسئلة إلى أحد ... ولم أنتظر إجابات من أحد.

المحقق: حقًّا ... لم أرك وجَّهت سؤالًا واحدًا مباشرًا إلى زوجتك، ولا طالبتها بإجابة عن سؤال!

الزوج: من هنا تدرك الصداع الذي يعتريني وأنا الآن في موضع السؤال والجواب.

المحقق: يُؤسفني أن أضعك هذا الموضع ... ولكن كيف تريد مِنْ مُحقِّق أن يُحقِّق ويبحث بدون إلقاء أسئلة وانتظار أجوبة؟

الزوج: حقًّا ... إنِّي أرثي لك ولمهنتك!

المحقق: هل هناك وسيلة أخرى للوصول إلى الحقيقة؟

الزوج: أي حقيقة؟!

المحقق: حقيقة هذا الاختفاء مثلًا.

الزوج: عليك أنت الوصول إلى هذه الحقيقة ... أنت المحقق ... وأنا مجرد الزوج.

المحقق: زوج المختفية ... نعم ... لكن أليس من الطبيعي أن يهتم زوج المختفية بمعرفة حقيقة اختفاء زوجته!

الزوج: إنِّي مهتم.

المحقق: لا يبدو عليك.
الزوج: ماذا تُريد أن يبدو عليَّ!
المحقق: القلق ... الاضطراب.
الزوج: فقدت هذه العادة منذ زمن طويل.
المحقق: أيُمكن لإنسان أن يفقد عادة القلق والاضطراب!
الزوج: نعم ... عندما يكون مفتش سكة حديد ثلاثين أو أربعين سنة.
المحقق: ماذا تقصد!
الزوج: أقصد أنَّ مفتش القطار هو الوحيد بين الركاب الذي لا يعرف القلق والاضطراب لتأخُّر القطار أو وصوله أو عدم وصوله!
المحقق: لكن لا بُدَّ أن يوجد شيء يُثير قلقك واضطرابك؟
الزوج: أحيانًا يزعجني قليلًا جرس المحطة وصفير القطار ... خصوصًا عندما أكون نائمًا أو شبه نائم.
المحقق: فقط جرس المحطة وصفير القطار؟
الزوج: وخصوصًا صفير القطار.
المحقق: هذا غريب!
الزوج (يتسمَّع بأذنه)**:** اسمع! ... ها هو صفير القطار! ... أسمعت؟
المحقق: لا.
الزوج: كيف لم تسمع ... القطار قادم ... هناك ... ألا تراه!
المحقق: أين؟
الزوج (يُشير إلى جهة من المسرح)**:** هناك! ... انظر! ... انظر!
المحقق (ينظر حيث أشار له)**:** نعم ... نعم.
الزوج: رأيته!
المحقق (ناظرًا)**:** نعم ... ها هو القطار حقًّا ...

(يسمع صوت صفير قطار وضجيج حركته.)

الزوج: سأبدأ بعد قليلٍ في التفتيش على التذاكر.
المحقق (ناظرًا إلى حيث أشار له)**:** لست أراك.
الزوج: لم أظهر بعد ... ستراني بعد لحظة.

(يظهر في تلك الجهة من المسرح موظف بردائه الرسمي، يحمل جزءًا من نافذة قطار يقيمه، ثمَّ يأتي بكرسي يجلس عليه إلى تلك النافذة، ويأخذ في التثاؤب.)

المحقق (ناظرًا إليه)**:** من هذا؟

الزوج: هذا مساعد المفتش ... مساعدي ... إنَّه موظف كسول كما ترى ... يحلو له الجلوس والنوم قرب النافذة ... ولولا رقابتي الشديدة لتهاون في واجبه أكثر من ذلك!

المحقق: وأين أنت إذن؟

الزوج: أؤدي واجبي بالطبع.

المحقق: أين؟!

الزوج: في القطار نفسه ... في عربة أخرى ولا شكَّ ... مسئولياتي جسيمة وتحتاج مني إلى يقظة دائمة!

المحقق: طبعًا.

الزوج (مشيرًا بيده إلى القطار)**:** ها أنا ذا أظهر لأفاجئ حضرة المساعد يغط في النوم!

المحقق (ناظرًا)**:** حقًّا ... هذا أنت بردائك الرسمي!

(يظهر المفتش وهو بهادر أفندي بردائه المصلحي ... يبدو منه ظهره فقط ... أمَّا صوته فمن الضروري أن يكون هو نفس الصوت ينبعث من المكانين المختلفين فوق المسرح.)

المفتش (يدق بكماشة على ظهر الكرسي)**:** نائم؟ ... يا حضرة المساعد؟!

المساعد (ينهض مباغتًا)**:** حضرة المفتش؟

المفتش: هل أيقظتك من أحلامك الجميلة؟!

المساعد: لم أكن أحلم!

المفتش: هذا شأنك ... الحلم أو عدم الحلم ... هو أنَّك كنت نائمًا!

المساعد: لم أكن نائمًا ... جلست أستريح فقط منذ لحظة!

المفتش: ما علينا ... دعنا من هذا الآن ... تمَّمت على كل عربات القطار؟!

المساعد: نعم ... تمام يا أفندم!

المفتش: وبلَّغتني بالنتيجة؟!

المساعد: بلَّغت يا أفندم!

المفتش: في أي وقت حصل هذا؟

المساعد: من ربع ساعة.
المفتش: وأين كنت أنا؟
المساعد: في ديوان خالٍ بالدرجة الأولى.
المفتش: وهل أشرت لك بإمضائي؟
المساعد: لا يا أفندم!
المفتش: والسبب؟
المساعد: خفت أوقظ حضرتك؟
المفتش: توقظني! ... وهل أنا كنت ... نائمًا؟
المساعد: كنتَ تنظر من النافذة.
المفتش: إذن لم أكن نائمًا.
المساعد: كنت تعد الشجر الذي يهرب من القطار؟
المفتش: هل سمعتني؟
المساعد: نعم ... كنت تقول: أريد هذه الشجرة ... وهذه وهذه ... وهذه ... أمسكوا لي شجرة من هذه الأشجار الهاربة من القطار ... هذه واحدة ... وهذه الثانية ... وهذه الثالثة ... وهذه الرابعة ... وهذه الخامسة ... وهذه ... وهذه، وهكذا وهكذا.
المفتش: سمعت كل هذا؟
المساعد: ليس اليوم فقط يا حضرة المفتش!
المفتش: تقصد أنِّي أفعل ذلك كل يوم.
المساعد: نعم ... كل يوم.
المفتش: أنت إذن تتجسَّس عليَّ؟!
المساعد: لم أفعل ذلك عن قصدٍ.
المفتش: ولماذا لم تنبِّهني؟
المساعد: حاولت ولكن حضرتك كنت في حالة ...
المفتش: حالة ماذا؟
المساعد: انسجام ... أقصد استغراق!
المفتش: ما علينا! ... هات تقريرك!

(المساعد يُقدِّم تقريره إلى المفتش ... وعندئذٍ يعلو صوت من بعيد لمجموعة من الصبية تُنْشِد.)

صوت الصبيان (عن بُعد): يا طالع الشجرة هات لي معك بقرة تحلب وتسقيني بالمعلقة الصيني ... إلخ، إلخ.

المفتش (للمساعد): ما هذا؟!

المساعد: رحلة مدرسية في الدرجة الثانية.

المفتش: كم العدد؟

المساعد: مائة تلميذ ... العدد مُوضَّح بالضبط هنا في الورق.

المفتش (يُراجع الورق): أهذا الرقم الأخير هو كل الركاب؟

المساعد: نعم ... كل ركاب القطار.

المفتش: جميعهم بتذاكر؟

المساعد: نعم.

المفتش: لم تضبط راكبًا بدون تذكرة؟

المساعد: لا ... ما عدا ...

المفتش: ما عدا؟!

المساعد: ماعدا ذلك الدرويش.

المفتش: درويش؟

المساعد: نعم ... رجل من الدراويش لم أجد معه تذكرة.

المفتش: واتخذت ضده الإجراءات؟

المساعد: لا ...

المفتش: والسبب؟

المساعد: تكلَّم بكلام لم أفهمه.

المفتش: وهل هذا سبب لعدم اتخاذ الإجراءات؟

المساعد: انتظرت لحين عرض أمره على حضرتك.

المفتش: ولماذا لم تعرض أمره؟

المساعد: كنت على وشك أن أفعل.

المفتش: متى؟ بعد قيامك من النوم؟

المساعد: ليس قيامي أنا.

المفتش: أرجوك ... كلِّف خاطرك ورح أحضره إلى هنا بسرعة!

المساعد: بسرعة ... (يذهب)

المفتش: وقاحة! (يجلس على الكرسي وينظر من نافذة القطار وينشد.)

يا طالع الشجرة هات لي معك بقرة
يا طالع البقرة هات لي معك شجرة
هات لي معك شجرة هات لي معك شجرة

(المحقق يهمس للزوج.)

المحقق: إنَّك تقلب الكلمات على هواك.
الزوج: الكلمات تخرج من فمي على هواها.
المحقق: عن غير وعي منك؟
الزوج: إنِّي كما ترى أنظر من النافذة ولا أُفكِّر في شيء.
المحقق: ولكنَّك تنظر إلى الشجر.
الزوج: حقًّا.
المحقق: ها هو المُساعد يعود إليك بالرجل.
الزوج: نعم.

(المساعد يظهر ومعه الدرويش.)

المساعد: أحضرته يا حضرة المفتش؟!
المفتش (للدرويش)**:** أنت راكب من أي محطة يا سي الشيخ؟
الدرويش: لم أركب من محطة.
المفتش: تقصد أنَّك ركبت أثناء الطريق؟
الدرويش: طبعًا.
المفتش: كان القطار واقفًا أو متمهلًا.
الدرويش: بل كان سائرًا كالعادة.
المفتش: عجبًا! ... واستطعت أن تركب أثناء السير؟
الدرويش: طبعًا مثل كل الناس.
المفتش: مثل كل الناس؟ ... وهل كل الناس يركبون أثناء السير؟
الدرويش: وينزلون أيضًا أثناء السير.

المفتش: أي نوع من الناس هذا؟
الدرويش: كل الناس.
المفتش: وأين تذكرتك؟
الدرويش: موجودة.
المفتش (يمد يده)**:** من فضلك؟
الدرويش (يخرج ورقة)**:** تفضَّل!
المفتش (يطَّلع عليها)**:** هذه شهادة ميلاد.
الدرويش: شهادة ميلادي.
المفتش: ولكنِّي أُريد تذكرة ركوبك.
الدرويش: هذه تذكرة ركوبي.
المفتش: أريد تذكرتك التي تركب بها القطار.
الدرويش: هي تذكرتي التي أركب بها القطار.
المفتش: أي قطار؟
الدرويش: القطار الأصلي.
المفتش: أي قطار أصلي؟
الدرويش: القطار الأصلي ... الذي قام قبل هذا القطار الفرعي ... ألا تعرف ذلك؟!
المفتش: اسمع ... أنا لا أفهم هذا الكلام ... أعطني تذكرتك التي تركب بها قطاري هذا.
الدرويش: وإذا لم أعطك التذكرة.
المفتش: نتخذ ضدك الإجراءات.
الدرويش: وما هي الإجراءات!
المفتش: دفع ثمن التذكرة مع الغرامة.
الدرويش: وإذا لم يكن معي نقود.
المفتش: أنزلك من القطار في أول محطة وأُسلِّمك إلى ناظرها.
الدرويش: وماذا سيصنع بي ناظرها.
المفتش: يُسلِّمك للبوليس.
الدرويش: وماذا يصنع بي البوليس؟
المفتش: يُحرِّر لك محضر مخالفة ويُقدِّمك للمحاكمة.

الدرويش: وبماذا تنتهي المحاكمة؟
المفتش: بالحكم عليك بغرامة.
الدرويش: وإذا لم أدفع الغرامة؟
المفتش: توضع في الحبس.
الدرويش: وماذا أفعل في الحبس؟
المفتش: لا تفعل شيئًا.
الدرويش: أنا الآن لا أفعل شيئًا.
المفتش: تريد إذن أن أتخذ ضدك الإجراءات؟
الدرويش: ولماذا تتخذ ضدي الإجراءات؟
المفتش: لأنك راكب بدون تذكرة؟
الدرويش: هل تريد تذكرة!
المفتش: نعم.
الدرويش: تذكرة واحدة؟
المفتش: بالطبع واحدة ... لأنَّك راكب واحد.
الدرويش: إليك عشر تذاكر!

(يمد يده خارج النافذة في الهواء ويقبض على عشر تذاكر يُقدِّمها إلى المفتش.)

المفتش (في دهشة)**:** ما كل هذا؟
الدرويش: انظر فيها جيِّدًا ... أليست تذاكر حقيقية؟
المفتش (يفحص التذاكر العشر متعجِّبًا)**:** حقًّا ... حقًّا ... إنَّها كلها حقيقية ... لكن ... من أين أتيت بها؟
الدرويش: هذا شأني.
المفتش: و... ماذا أفعل بكل هذه التذاكر؟
الدرويش: ألم تطلب تذكرة؟ ... ها هي تذاكر.
المفتش (وهو يرد تسعًا منها)**:** تكفي واحدة فقط ... أمَّا الباقي؟
الدرويش: الباقي وزِّعه على من لم يحمل واحدة من رُكَّاب القطار.
المفتش: لم يكن يوجد غيرك لا يحمل تذكرة.
الدرويش: إذن أنت لست في حاجة إلى التسع الباقية؟
المفتش: لا.

الدرويش: ردَّها إليَّ إذن!

(المفتش يردَّها إليه مأخوذًا!)

الدرويش (يُلقي بها من النافذة)**:** ها أنا ذا أرجعها إلى حيث جاءت.
المفتش: ومن أين جاءت؟
الدرويش: هذا شأني.
المفتش: ولكن هذا عجيب؟
الدرويش: هذا في غاية البساطة ... الإتيان بتذاكر قطارك هذا هو من أبسط الأمور ... (يضحك) تذاكر قطارك هذا ... بسيطة ... بسيطة!
المفتش: أنت رجل مبارك ... مكشوف عنك الحجاب ... هل تسمح لي بالجلوس قليلًا إلى جوارك؟
الدرويش: لا تُلقِ عليَّ أسئلة! ولكن اطلب مني ما تشاء!
المفتش: هل تعرف ماذا أطلب من حياتي؟
الدرويش (ينشد)**:**

يا طالع الشجرة هات لي معك بقرة
تحلب وتسقيني بالمعلقة الصيني

المفتش: يظهر أنَّك عرفت.
الدرويش: العارف لا يُعرَّف.
المفتش: إذن لا حاجة بي إلى الشرح.
الدرويش: هناك في ضاحية الزيتون.
المفتش: ضاحية الزيتون؟
الدرويش: هناك سوف تجد ...
المفتش: أجد ماذا؟
الدرويش: الشجرة ... في الشتاء تطرح البرتقال ... وفي الربيع المشمش ... وفي الصيف التين ... وفي الخريف الرمان.
المفتش: شجرة واحدة؟
الدرويش: واحدة كل شيء واحد ... هناك: الشجرة، والبقرة، والشيخة خضرة.

المفتش: الشيخة خضرة؟!

الدرويش: كل شيء أخضر ... كل شيء أخضر.

المفتش: كل شيء أخضر؟! هذا كلام مطمئن.

الدرويش: إلى حين ...

المفتش: أوَترى شيئًا مكدرًا؟

الدرويش: لا تُلْقِ عليَّ أسئلة! ... قلت لك: لا تُلْقِ عليَّ أسئلة!

المفتش: هناك سؤال لا بُدَّ لي من أن ألقيه عليك: هل تسمح أن أكون من مُريديك؟

الدرويش: لماذا؟

المفتش: لأنِّي أشعر وأنا في جوارك بالطمأنينة.

الدرويش: أنت لست في حاجة إلى الطمأنينة ... مَنْ يركب القطار دون انتظار لمحطة وصول ... هو دائمًا مطمئن.

المفتش: هذا صحيح ... ولكن!

الدرويش: ولكنَّك تكثر النظر من النافذة ... فترى الأشجار عندئذٍ تفر.

المفتش: هذا صحيح أيضًا ولكن!

(القطار يصفر.)

الدرويش: عملك يدعوك يا حضرة المفتش.

المفتش: بدأت أسأم هذا العمل ... خمسة وثلاثون عامًا في القطار ... أليس لي الحق أن أسأم؟!

الدرويش: ولكن القطار لا يسأم!

المفتش: لأنَّه لا يعرف ما هو السأم.

الدرويش: إنَّه يعرف فقط السير ... السير ... السير ... السير ... السير ... السير ... أليس من الخير لك أن تكون قطارًا؟!

المفتش: لقد كنت قطارًا.

الدرويش: عندما كنت طفلًا.

المفتش: نعم.

الدرويش: ولم تشعر بالسأم؟

المفتش: لا.

الدرويش: نعم ... ما أحلى تلك الأيام التي كنَّا فيها قطارات!

المفتش: كان يمسك بعضنا بأذيال بعض ... ونظل طول اليوم نسير في الطرقات ... نصفر وننفث الدخان من أفواه صغيرة ... ولكنَّها لا تتعب.

الدرويش: القطار لا يتعب ... ولكن الرُّكَّاب هم الذين يتعبون.

المفتش: وعندما كبرنا لم نعُد نصلح لأن نكون قطارات.

الدرويش: وبدأ التعب وبدأ السأم!

المفتش: نعم.

الدرويش: انهض إلى عملك يا حضرة المفتش.

المفتش: ألا تُريد أن أبقى معك وأتحدَّث؟

الدرويش: إلى عملك يا حضرة المفتش ... إلى عملك!

(الزوج للمحقق.)

الزوج: لماذا يضيق بي هذا الرجل؟

المحقق: اسكت أنت ... حتَّى أسمع ردك عليه!

الزوج: ولكنِّي لن أرد ... إنِّي أتأهَّب للقيام إلى عملي.

المحقق: بالعكس ... إنَّك تتأهَّب للكلام ... انظر!

الزوج: حقًّا ... ولكن ماذا يُمكن أن أقول الآن؟

المحقق: هذا شيء لا تعرفه أنت ... ولكنَّه هو يعرفه ... أقصد أنت ...

الزوج: أنا لا أعرفه ... وأنا أعرفه؟!

المحقق: ها أنت ذا تتكلَّم.

الزوج: أنا لم أتكلم ... ليس عندي ما أقول.

المحقق: هناك ... انظر ... انظر ... إنَّك تتكلَّم!

(المفتش يتكلَّم.)

المفتش: يا سيدنا الشيخ ... أنقذني ... أنقذني بربك!

الدرويش: أنقذك؟

المفتش: نعم ... أنقذني من شخص يزعجني.

الدرويش: إنَّه معك دائمًا.

المفتش: نعم.

الدرويش: لا تفهم ما يُريد أحيانًا.
المفتش: لا أفهم ما يُريد.
الدرويش: ولكنَّه يزعجك.
المفتش: يُزعجني ويُخيفني وأخشى أن يضلني يومًا.
الدرويش: أعرف ... أعرف.

(المحقق للزوج.)

المحقق: من هذا الشخص الذي يزعجك وتخشى أن يضلك يومًا؟
الزوج: لا أدري.
المحقق: ولكنَّك أنت الذي تقول ذلك؟
الزوج: لست أدري لماذا أقول ذلك.
المحقق: ولكن الدرويش يعرف فيما أرى.
الزوج: لا شكَّ أنَّه يعرف.
المحقق: ما السبيل إلى التحقُّق من هذه النقطة؟!
الزوج: لست أدري ما هو السبيل.
المحقق: لو أمكننا سؤال هذا الدرويش.
الزوج: أتُريد سؤاله؟
المحقق: لا شك في استطاعته أن يُلقي ضوءًا.
الزوج: إنَّه يستطيع ... ما في هذا شك.
المحقق: وأين هو الآن؟
الزوج (مُشيرًا إلى جهة القطار)**:** أمامك ... في القطار!
المحقق: وكيف تأتي به؟
الزوج: إذا شئت استدعيناه ... ولكن القطار يسير الآن كما ترى.
المحقق: والحل؟
الزوج: ننتظر قليلًا حتَّى يقف القطار في أول محطة!

(الدرويش للمفتش في القطار.)

الدرويش: لماذا تُريد استدعائي أمام البوليس؟

المفتش: أنا أريد ذلك؟ ... لم تعد هناك حاجة ... تذكرتك معك.
الدرويش: أنت تريد ذلك.
المفتش: لماذا؟
الدرويش: لست أدري بالضبط ... ربما من أجل شهادة.
المفتش: شهادة.
الدرويش: شهادة في قضية.
المفتش: تخصني أنا؟
الدرويش: نعم ... تخصك.
المفتش: متى ذلك؟
الدرويش: لا أعرف بعد.
المفتش: ولكنِّي أنا الآن معك هنا.
الدرويش: ليس هنا.
المفتش: أين إذن!
الدرويش: هناك ... في ضاحية الزيتون.
المفتش: ضاحية الزيتون؟
الدرويش: في منزلك ... منزل زوجتك.
المفتش: زوجتي ... ولكنِّي لم أتزوَّج بعد؟!
الدرويش: لا داعي لانتظار وقوف القطار في أول محطة ... يحسن أن أذهب إليك ... هناك.

(الدرويش ينهض من مكانه، ويُغادر القطار تاركًا المفتش متعجبًا لاختفائه.)

المفتش: يا سيدنا الشيخ ... يا سيدنا الشيخ ... أين ذهب؟! ... أين اختفى؟!

(يطل من نافذة القطار باحثًا عنه ... ولكنَّه يكون في طريقه بخطى المُتردِّد المتلمس إلى ناحية المحقق والزوج ... في حين يسمع صفير القطار المُنصرف وضجيجه ... ثمَّ اختفاء المفتش والنافذة والكرسي ... ولا يبقى في المكان كله إلَّا المحقق أمام منضدته والزوج ... ثمَّ الدرويش وهو يقترب منهما في خطى بطيئة.)

الدرويش: سلام عليكم!

المحقق: وعليكم السلام ورحمة الله!
الدرويش: طلبتم استدعائي.
المحقق: نعم.
الزوج: جئت بغاية السرعة يا سيدنا الشيخ!
الدرويش: لم أر داعيًا لإطالة انتظارك!
الزوج (تاركًا مقعده للدرويش)**:** تفضَّل هنا يا سيدنا الشيخ!
الدرويش (ناظرًا حوله)**:** أهذا هو المنزل؟
الزوج: نعم.
الدرويش (يلتفت جهة الحديقة)**:** والشجرة هناك؟!
الزوج: نعم.
الدرويش (مُشيرًا إلى المحقق)**:** وحضرته من رجال البوليس؟
الزوج: نعم.
الدرويش: تشرَّفنا!
المحقق: نحن في حاجة إلى معاونتك.
الدرويش: أنا في الخدمة.
المحقق: هل لديك معلومات في الموضوع؟
الدرويش: أي موضوع؟
المحقق: اختفاء زوجته؟
الدرويش (للزوج)**:** فعلتها إذن؟!
الزوج: ماذا تقصد؟
الدرويش: أنت فاهم قصدي.
الزوج: لا ... أرجوك يا سيدنا الشيخ نحن الآن أمام محقق ... وكل كلمة منك يُمكن أن تُفسَّر تفسيرًا قد لا تقصده.
الدرويش: صدقت.
المحقق: فعل ماذا؟
الدرويش: هل قلت إنَّه فعل شيئًا؟!
المحقق: قلت له «فعلتها إذن؟» ... فعل ماذا؟
الدرويش: لا تُلْقِ عليَّ أسئلة ... اطلب ما تريد ولا تُلْقِ عليَّ أسئلة!

المحقق: إنِّي مُحقِّق ... ولكي أحقِّق لا بُدَّ من أن أُلقي أسئلة!
الدرويش: لا شأن لي بتحقيقك ... إذا أردت مني شيئًا اطلبه ولا تُلْقِ أسئلة!
المحقق: أريد إذن رأيك في اختفاء زوجته ... هذا طلب وليس سؤالًا.
الدرويش: زوجته.
المحقق: نعم ... أطلب رأيك في اختفائها.
الدرويش: زوجته ... إمَّا أنَّه قتلها ... وإمَّا أنَّه لم يقتلها بعد.
الزوج (صائحًا): ما هذا الذي تقول يا سيدنا الشيخ؟
الدرويش: هل قتلتها؟
الزوج: أنا؟! ... حاشا لله يا شيخ!
الدرويش: إذن لم تقتلها بعد؟
الزوج: ما هذا الكلام يا رجل؟!
المحقق: رأيك إذن يا سيدنا الشيخ أنَّه قتلها؟
الدرويش: إمَّا أنَّه قتلها وإمَّا أنَّه لم يقتلها بعد.
المحقق: مصيرها القتل على كل حال إذن؟
الدرويش: نعم.
المحقق: بيد زوجها هذا؟
الدرويش: نعم.
المحقق (للزوج): ما قولك الآن؟
الزوج (صائحًا): هذا رجل دجَّال، كذَّاب، عابث، مخرف.
المحقق: ولكنَّك كنت حتَّى هذه اللحظة تثق فيه ... وتود أن تكون من مريديه.
الزوج: إنَّه يتهمني زورًا ... بدون مُبرِّر.
المحقق: لا بُدَّ أنَّ لديه المُبرِّر.
الزوج: لا مُبرِّر سوى أنَّه يحقد عليَّ لأنِّي كنت قد طالبته بالتذكرة!
المحقق: ليست هذه ضغينة جدية ... ومع ذلك فقد أبرز لك بدل التذكرة عشر تذاكر.
الدرويش: قل له يا حضرة المحقق ... قل له!
الزوج: لماذا تتهمني بقتل زوجتي؟
الدرويش: لست أتهم ... إنِّي أرى ...

الزوج: ترى أنِّي قتلتها!

الدرويش: إن لم تكن قد قتلتها ... فستقتلها.

الزوج: ترى ذلك؟

الدرويش: نعم.

الزوج: ولماذا لم تخطرني برؤياك هذه عندما تقابلنا في القطار؟

الدرويش: لم أكن قد رأيت ذلك بعد.

الزوج: ولكنَّك رأيت لي ضاحية الزيتون والشجرة والزوجة؟!

الدرويش: نعم رأيت ذلك.

الزوج: ولم تر القتل؟

الدرويش: لم يكن القطار قد وصل بي إلى حيث أرى أبعد مِمَّا رأيت.

الزوج: أي قطار؟

الدرويش: قطاري.

الزوج: إنَّك تخلط يا سيدنا الشيخ.

الدرويش: إنِّي لا أقول إلَّا ما أرى ... وإذا رأيت فإنِّي أقول.

الزوج: ولماذا أقتل زوجتي؟

المحقق: اسمح لي ... هذا ما لا شأن للشاهد بالإجابة عنه ... إنَّ الأسباب الدافعة إلى ارتكاب الجريمة يُمكن أن توجد في كل وقت ... وعلى كل صورة.

الزوج: إنِّي أحب زوجتي.

المحقق: وتحب الشجرة أكثر منها.

الزوج: إنَّها لم تكن تشكو من ذلك.

المحقق: ولكن الشجرة كانت تشكو من قلة الغذاء.

الزوج: ماذا تعني؟

المحقق: أنت الذي كان يقول ذلك منذ حين.

الزوج: لست أفهم ما ترمي إليه؟

المحقق: دعنا الآن من كل هذا ... ولنتحدَّث في خصائص الشجر ... ولنشرك سيدنا الشيخ في الموضوع ... إنَّه لا شكَّ يعرف عنه الكثير.

الدرويش: بل القليل.

المحقق: يكفينا قليلك يا سيدنا الشيخ ... إذا طلبت إليك رأيك في طريقة تنمو بها شجرة البرتقال مثلًا ... نموًّا عظيمًا.

الدرويش: يُقال إنَّ هنالك شجرة تطرح البرتقال في الشتاء والمشمش في الربيع، والتين في الصيف، والرمان في الخريف.

الزوج: شجرة واحدة تطرح كل ذلك؟!

الدرويش: نعم ... شجرة واحدة.

الزوج: شجرة واحدة تجمع بين كل هذه المتناقضات؟ ... أهذا معقول؟ ... أيمكن أن يحدث هذا؟! ... اشهد يا حضرة المُحقِّق ... هذا الرجل يعبث ... وأين توجد هذه الشجرة؟

الدرويش: في أي مكان شئت ... ربما كانت شجرتك هذه؟

الزوج: شجرتي هذه ... شجرة البرتقال هذه يمكن أن تفعل هذا؟!

الدرويش: ألا تعرف هذا؟ ... ألم أُحدِّثك عن هذا في القطار؟!

الزوج: حسبتك تمزح وتعبث.

الدرويش: إنِّي لا أعرف المزاح والعبث.

الزوج: شجرتي هذه يمكن أن تطرح كل هذه الفاكهة المختلفة في الفصول المختلفة؟

الدرويش: إذا تغذَّت بالسماد الذي تعرفه.

الزوج: أي سماد تعني؟

الدرويش: إذا دُفِنَ تحتها جسد كامل لإنسان ... فإنَّها تتغذَّى بكل ما فيه من متناقضات.

الزوج: لم أكن أعرف ذلك.

المحقق: بل كنت تعرف.

الزوج: ربما سمعت منه أو من غيره شيئًا كهذا ... ولكنِّي لم ألق إليه بالًا.

المحقق: يكفي أن يتسرَّب إلى نفسك شيء منه.

الزوج: فليكن ... ما النتيجة التي تُريد الوصول إليها؟

المحقق: أظن سبب الجريمة بدأ يتضح.

الزوج: أفصح من فضلك يا حضرة المحقق؟!

المحقق: الأمر لم يعُد يحتاج إلى إفصاح ... اعترف ... هذا خير لك.

الزوج: أعترف بماذا؟

المحقق: بأنَّك قتلت زوجتك ودفنتها تحت هذه الشجرة؟!

الزوج: لكي تتغذَّى بها الشجرة، وتطرح في الشتاء البرتقال، وفي الربيع المشمش، وفي الصيف التين، وفي الخريف الرمان؟!

المحقق: إنَّه هدف لا بأس به على كل حال.

الزوج: هل تظنني لو فعلت ذلك أُعْتَبر حافظًا لكامل قواي العقلية؟

المحقق: مسألة قواك العقلية من اختصاص المحكمة ... هي التي تفحصها ... أمَّا مهمتي فهي التحقيق في الجريمة ... والحصول على اعترافك ... وخير لك أن تعترف ... خصوصًا بعد شهادة الشاهد.

الزوج: أي شاهد؟

المحقق: هذا الشيخ المحترم.

الزوج: هذا الرجل الذي جاءنا من الهواء.

المحقق: من الهواء ... من الفضاء ... إنَّه أدلى بشهادة يُمكن الاعتماد عليها.

الزوج: قتلت زوجتي لأُغذي الشجرة؟! ... هذا السبب الخرافي غير المعقول، هل يُمكن أن يخطر على بال إنسان في عصرنا الحاضر؟!

المحقق: أعندك سبب آخر جدير بعصرنا الحاضر؟! ... إنِّي مستعد لسماعه والأخذ به!

الزوج: بل أنا المستعد لسماع أي سبب معقول ... أو على الأقل غير خرافي يمكن أن يدفع إنسانًا عصريًّا لقتل زوجته ولا بأس عندئذٍ من إسناده إليَّ.

المحقق: تريد أن تعرف لماذا يقتل الإنسان العصري زوجته؟

الزوج: نعم ... اذكر لي أهم الأسباب ... وأنا أختار منها ما يحلو لي.

المحقق: خذ عندك يا سيدي: أولًا الخيانة الزوجية.

الزوج: هذه مستبعدة ... أنا في الخامسة والستين وامرأتي في الستين ... وليس في أحدنا مطمع.

المحقق: ثانيًا: الطمع في الثروة.

الزوج: هذه أيضًا مستبعدة ... إنَّها فقيرة ... لا تملك غير هذا المنزل الصغير جدًّا كما ترى ... ومن السخف أن أقتلها من أجله ... ولا ضرورة لذلك على الإطلاق.

المحقق: ثالثًا: عدم توافق الطباع.

الزوج: هذا ليس سببًا يدعو إلى القتل.

المحقق: بالعكس ... هذا من أهم الأسباب للقتل العصري ... ألم تسمع عن قضية قتل فيها الزوج زوجته خنقًا لأنَّها تحب دائمًا إلقاء الأسئلة؟ ... وزوجة دسَّت السم لزوجها لأنَّه يرفض دائمًا إبداء رأيه في تسريحة شعرها؟

الزوج: زوجتي لا تسألني ولا أسألها في شيء ... وقد رأيت بعينك ... وليس لي أو لها شعر يستحق التسريح أو إبداء الرأي فيه!

الدرويش (للزوج)**:** اطمئن! ... إنَّ القتل عندك هو لسبب عصري جدًّا.

الزوج: وبعدها لك يا سيدنا الشيخ!

الدرويش: كل غرضي هو إدخال الاطمئنان إلى قلبك ... السبب عندك يتمشَّى مع فلسفة العصر!

الزوج: فلسفة العصر؟!

الدرويش: إنَّ القتل لأسباب فلسفية شيء مألوف في عصرنا الحديث.

الزوج: أنا قتلت زوجتي لأسباب فلسفية؟! ... هذا هو الشيء الذي كان ناقصًا حقًّا يا سيدنا الشيخ!

الدرويش: اطمئن! ... اطمئن!

الزوج: إنِّي مطمئن جدًّا ... ولكن أحب أن ألفت نظرك إلى أنِّي لا أعرف من كلمة الفلسفة إلَّا ما يتداوله عامة الناس ... لا تنس أنِّي لست أكثر من مفتش قطار! ... ولم أقرأ في حياتي كتابًا غير جدول السكة الحديد ... وبعض القصص البوليسية!

المحقق: القصص البوليسية؟!

الزوج: تقع في يدي أحيانًا ... أجدها متروكة سهوًا على بعض المقاعد بعد أن يكون قد فرغ من قراءتها أحد المسافرين.

المحقق: إذن أنت تقرأ القصص البوليسية؟

الزوج: وما الضرر؟

المحقق: لا ... لا شيء ... كل شيء بدأ يتضح.

الزوج: ما هو الذي بدأ يتضح؟! ... إنِّي لست أنكر.

المحقق: لست تنكر؟

الزوج: نعم ... لست أنكر أنِّي أقرأ القصص البوليسية، ولكنِّي لم أقرأ الكتب الفلسفية.

المحقق: لا تهمني الكتب الفلسفية.

الزوج: ولكن سيدنا الشيخ يزعم أنِّي قتلت بسبب الفلسفة.

الدرويش: فلسفة العصر.

الزوج (للمحقق)**:** أسمعت؟ ... ها هو ذا يُكرِّرها.

الدرويش: فلسفة العصر موجودة فيك ... وفلسفة الشجرة موجودة فيها.

الزوج: فلسفة الشجرة؟

الدرويش: نعم.

الزوج: وما هي فلسفة الشجرة؟

الدرويش: تنتج ولا تسأل ... تنتج زهرًا لا تشمه، وثمرًا لا تأكله ... ولا تسأل لماذا ... لا يُعذِّبها السؤال عن جواب لن تتلقَّاه أبدًا.

الزوج: حقًّا ... هذا شيء جميل من الشجرة ... ولكن ... ما دخلي أنا في هذا؟

الدرويش: إنَّك لست شجرة.

الزوج: هذا بديهي.

الدرويش: ولذلك ستقتل زوجتك إن لم تكن قتلتها؟

الزوج: هل فهمت شيئًا يا سيدي المحقق؟

المحقق: لم أفهم بالضبط ... ولكن المهم على كل حال هو أنَّ فضيلة الشاهد يُقرِّر ويُكرِّر أنَّك قتلت زوجتك.

الزوج: إنَّكم تُضيِّقون الخناق على رقبتي لإثبات التهمة عليَّ!

المحقق: التهمة ثابتة من نفسها ... وخير لك أن تعترف.

الزوج: أنِّي قتلت زوجتي؟

المحقق: على فكرة ... قتلتها بأي شيء ... كيف تمَّ القتل؟ ... بآلة حادة؟ ... أو بالسم أو بـ...

الزوج: كله إلَّا السم.

المحقق: لا بأس! ... لا بأس ... هدِّئ نفسك ... وسيلة القتل سيكشفها الطبيب الشرعي عند تشريح الجثة ... لا داعي أن تذكرها ... إنِّي مُراعٍ لشعورك.

الزوج: لو أنَّكم فقط ذكرتم لي سببًا معقولًا يُبرِّر قتلها؟

المحقق: دعك من السبب المعقول ... كل جرائم القتل لها ما يُبرِّرها في أعين مرتكبيها ... سواء كان الدافع معقولًا أو غير معقول.

الزوج (ضاحكًا فجأة)**:** كله إلَّا السبب الفلسفي؟!

المحقق: وأنا غير مُتمسِّك بهذا السبب.

الزوج: ولكن سيدنا الشيخ فيما يظهر مُتمسِّك به؟

المحقق: مع احترامي لآراء سيدنا الشيخ فأنا أعدك بعدم ذكر أي أسباب لا تُعْجِبُكَ في محضر التحقيق ... اتفقنا؟

الزوج: اتفقنا.
المحقق (ينهض)**:** هلم بنا إذن!
الزوج: إلى أين؟
المحقق: إلى الحبس.
الزوج: الحبس؟! ... لماذا؟
المحقق: لأنَّك بالطبع مقبوض عليك.
الزوج: ستقبض عليَّ؟!
المحقق: يُؤسفني أن أفعل ... ولكن هذا إجراء لا بُدَّ منه!
الزوج: أنت جاد حقًّا؟!
المحقق: بالطبع جاد ... أتظن أنِّي جئت هنا لأمزح معك أم لأقوم بأعمال وظيفتي؟
الزوج: ولكنِّي لم أرتكب شيئًا يستحق الحبس!
المحقق: إذا كنت ترى أنَّ قتل الزوج لزوجته شيء لا يستحق الحبس فهو رأي قد يكون له احترامه، ولكنَّه على كل حال ليس رأي القانون.
الزوج: ولكنِّي يا حضرة المحقق.
المحقق: كفى! ... التحقيق طال أكثر مِمَّا ينبغي ... ويحسن أن تضع نفسك تحت تصرف العدالة بكل هدوء ... هذه خير نصيحة أقدمها إليك!
الزوج: خير نصيحة تُقدِّمها إليَّ؟
المحقق: نعم ... وأرجوك أن تسمع نصيحتي! ... سلِّم نفسك!
الزوج: أُسلِّم نفسي!
المحقق: وبدون تردد ... هذا خير لك! ... اسمع نصيحتي!
الزوج (يلتفت إلى الدرويش)**:** أيُرضيك هذا يا سيدنا الشيخ؟!
الدرويش: لا تسألني! ... قلت لك أن لا تُلْقي عليَّ أسئلة!
الزوج: ولكن هذا ظلم!
الدرويش: هل أنصرف يا حضرة المحقق؟
المحقق: إذا شئت ... مع جزيل الشكر!
الدرويش (للزوج منصرفًا)**:** إلى اللقاء يا حضرة المفتش ... إنِّي عائد إلى القطار.
الزوج: لعنة الله عليك وعلى من دعاك!
المحقق: ما دُمْتَ مُصرًّا على موقفك فلأتخذ إذن إجراءاتي ... (يتجه إلى جهة الباب ويُنادي) يا عسكري!

(العسكري: يُسمع صوت دق حذائه بالتحية في الخارج دون أن يُرى.)

المحقق: احجز هذا المتهم في قسم البوليس ... وأحضر من يحفر تحت هذه الشجرة لاستخراج الجثة!

الزوج (صائحًا)**:** ستحفرون تحت شجرتي! ... ستقتلون الشجرة! ... يا قتلة! ... يا قتلة!

القسم الثاني

(نفس المكان ... المحقق واقف حيث يطل على الحديقة، ويُشرف على عملية الحفر، ويُحادث حفَّارًا غير ظاهر ... وفي الجانب الآخر الخادم العجوز تُحادث لبَّانًا غير ظاهر، كما لو كان ذلك من نافذة تطل على الطريق.)

(للحفار الذي في الحديقة): طبعًا تحت الشجرة!

نعم ... نعم.

الحفار: ... (يُسمَع صوته دون تبين كلامه.)

المحقق: الاتجاه؟! ... حقًّا هذا ما لا أستطيع أن أدُلَّك عليه ... إنِّي مثلك لا أعرف!

الحفار: ... (صوت غير مفهوم.)

المحقق: صدقت ... ربما كان رأيك صائبًا ... احفر حول الشجرة كلها ... لا تتعمَّق كثيرًا في مبدأ الأمر ... ربما تعثر على شيء يُحدِّد لك الاتجاه ... وعندئذٍ ... ماذا تقول؟

الحفار: ... (كلام غير مفهوم.)

المحقق: فعلًا ... فعلًا ... بالجاروف أولًا ... وكن حذرًا عند استخدام الفأس حتَّى لا تُهشِّم شيئًا من الجثة!

الحفار: ... (صوت غير مفهوم.)

المحقق: لا ... لا ... بالطبع ... إنِّي واثق من خبرتك.

الحفار: ... (كلام غير مفهوم.)

المحقق: نعم! ... هكذا ... استمر ... استمر ... استمر.

(المحقق يُتابع عملية الحفر بحركة من رأسه تُساير الجاروف في حركته.)

الخادمة (للبَّان): لا ... لا تحضر اللبن بعد اليوم ... لمن تحضره؟
اللبان: ... (صوت في الخارج غير مفهوم.)
الخادمة: أليس كذلك؟! ... ها أنت قد عرفت كل شيء من الجيران.
اللبان: ...؟
الخادمة: لا يوجد غير البوليس ... يستخرجون الجثة من الحديقة.
اللبَّان: ...؟
الخادمة: نعم في الحبس.
اللبان: ...؟
الخادمة: لا يدري أحد لماذا قتلها؟
اللبان: ...
الخادمة: ولا أنا ... ربما كان يكرهها ... الناس أسرار ... وما في القلب في القلب.
اللبان: ...؟
الخادمة: ماذا تقول؟
اللبان: ...؟
الخادمة: آه ... هذا شيء بسيط ... البيت فيه آلات كثيرة من فأس وجاروف ومقص حدائق ... ضربة على الرأس من واحدة منها تكفي.
اللبان: ...؟
الخادمة: والله كان طيب القلب ... وهي أيضًا ... لكن الناس أسرار!
اللبان: ...؟
الخادمة: من قال لك هذا؟ ... لا ... كذب ... لم يكن عندها مال حتَّى يطمع فيها.
اللبان: ...؟
الخادمة: لا ... ولا مصاغ.
اللبان: ...؟
الخادمة: امرأة أخرى؟ ... لا ... هذا الكهل ليس في سن الطيش ... وإن كان هناك حب فهو لا يُحب إلَّا شجرته.
اللبان: ...؟
الخادمة: اعترف؟ ... نعم ... قال في التحقيق إنَّه قتلها ودفنها تحت الشجرة.
اللبان: ...؟

الخادمة: مصير المنزل؟ ... سمعت حضرة الضابط يقول إنَّه سيُغلَق ويختم عليه بالشمع الأحمر.

اللبان: ...؟

الخادمة: أنا؟ ... مصيري؟ ... لا أدري والله ما مصيري ... كرهت خدمة البيوت ... هذا البيت كان فلتة من الفلتات ... لا أطفال ولا ضجيج ... وسيدة البيت تقوم بنفسها بأكثر العمل ولا تحتاج إليَّ إلَّا في الغسيل ومسح البلاط ... وتتركني بعد انتهاء عملي أعود إلى منزلي ... لذلك مكثت فيه عدة سنوات في أتم راحة ... لكن ليست كل البيوت كهذا البيت ... وها هو أخيرًا هذا البيت ينتهي بجريمة ويُغلَق ويختم عليه بالشمع الأحمر!

اللبان: ...

الخادمة: ماذا تقول؟ ... عندك لي عمل؟ ... أين؟

اللبان: ...

الخادمة: لا ... لا أحب الشغل في المستشفيات ... غسالة في مستشفى المبرة؟ ... أعوذ بالله! ... أظل طول النهار أغسل ملابس مقرفة ملوثة بكافة الأمراض.

اللبان: ...

الخادمة: صدقت ... لنا رب في السماء! ... ربنا يتولانا جميعًا بعنايته ... ماذا؟

اللبان: ...

الخادمة: كم بالضبط؟

اللبان: ...

الخادمة: هذا حساب مُتأخِّر؟

اللبان: ...

الخادمة: لا علم لي ... لم تقل لي الست ... أقصد المرحومة.

اللبان: ...

الخادمة: لا من فضلك ... قبل مقتلها بيوم قالت لي إنَّ حساب اللبن خالص.

اللبان: ...؟

الخادمة: متأكدة ألف مرة ... سمعتها بأذني ... قالت لي بعظمة لسانها: يكون في معلومك إنَّ حساب اللبن خالص ... وليس علينا متأخرات.

اللبان: ...؟

الخادمة: وماذا أعمل بورقة حسابك؟ ... احفظها معك ... ومن الذي يطلع عليها الآن ويناقشك فيها!

اللبان: ...؟

الخادمة: علمي علمك.

اللبان: ...؟

الخادمة: أجرك على الله!

اللبان: ...؟

الخادمة: الحال من بعضه ... أنا أيضًا لم أقبض بقية الشهر ... لكن ما باليد حيلة! ... أُطالب مَنْ؟ ... سيدي الذي في الحبس؟ ... أو سيدتي المدفونة تحت الشجرة؟

اللبان: ...؟

الخادمة: البوليس؟ الحكومة؟ ... يوم الحكومة بسنة وأنت سيد العارفين ... خليها على الله! مسألتنا بسيطة على كل حال وقضا أخف من قضا.

اللبان: ...

الخادمة: مع السلامة.

(الخادمة تتجه إلى حيث المحقق ... وهو لا يُلقي بالًا إليها ويستمر في متابعة عملية الحفر في الحديقة.)

المحقق (للحفار)**:** ألم تعثر بعد على شيء؟

الحفار: ...؟

المحقق: ماذا تقول؟ ... على وشك أن تصل؟ ... هل أنت على عمق كاف؟

الحفار: ...

المحقق: استمر إذن! ... وبحذر.

الخادمة (وهي تتابع الحفر)**:** على مهلك من فضلك ... حتَّى لا تشوِّه بفأسك وجهها! ... للأموات حرمة!

المحقق (يلتفت إلى الخادمة)**:** كُنْتِ تُحادثين شخصًا من النافذة؟

الخادمة: اللبَّان ... كان في الشارع.

المحقق: كنت تقولين له إنَّ المتهم قتل زوجته بضربة فأس أو جاروف أو مقص! كيف عرفت ذلك؟

الخادمة: وهل أنا أعرف شيئًا أو رأيت بعيني شيئًا ... هذا مجرد تخمين.

المحقق: ولماذا اتجه فكرك وتخمينك إلى هذا بالذات؟

الخادمة: وكيف يقتلها إذن؟
المحقق: هل سبق أن هدَّدها أمامك بآلة من هذه الآلات؟
الخادمة: أبدًا ... ولا حتَّى بالكلام.
المحقق: إذن أنتِ ترين أنَّ الطريقة الطبيعية لقتلها هي استخدام آلة من هذه الآلات.
الخادمة: لأنَّها تحت يده دائمًا ... ويعمل بها في الحديقة كل يوم ويُنظِّفها بنفسه كما رأيت!
المحقق (يلتفت إلى الحفر): سنرى بعد قليل على كل حال ... طريقة القتل ستظهر في الجثة بكل وضوحٍ.

(طرق على الباب الخارجي.)

الخادمة: هذا طرق على الباب الخارجي.
المحقق: من يُمكن أن يكون؟
الخادمة: ربما الجزار أو البقال ... هل أذهب لأرى؟
المحقق: اذهبي!
الخادمة (تُجيب الطارق وهي تُسرع إلى الباب): مهلًا ... ها أنا قادمة!
المحقق (مُلتفتًا إلى الحفار): احفر ... احفر ... استمر.

(الخادمة في الخارج تُطلق صيحة رعب هائلة.)

الخادمة (تظهر مهرولة نحو المحقق): عفريتها ... انجدوني!
المحقق (للخادمة): ماذا جرى لكِ؟!
الخادمة: هي ... هي ... المقتولة ... سيدتي.

(الزوجة تظهر بملابس الخروج مندهشة.)

الزوجة (للخادمة): ما هذا الجنون؟! ... ماذا جرى لكِ؟! ... لماذا تصيحين هكذا؟
المحقق (في دهشة وذهول): أهي؟
الخادمة (للمحقق): نعم ... هي ... هي بعينها.
الزوجة (للخادمة): ماذا جرى؟ ... مَنْ حضرته؟
الخادمة (لسيدتها): ألستِ مقتولة؟
الزوجة: هل جننت؟ ... إنَّها بدون شك مجنونة؟

المحقق: حضرتك؟ ... (يتفرَّس في وجهها) نعم! ... أنتِ ... حقًّا؟

الزوجة: أنا صاحبة البيت ... وحضرتك؟

المحقق: أنا ... بوليس.

الزوجة: بوليس ... خيرًا؟ ... هل حصل شيء؟

المحقق: حصل أنَّنا ... أنَّكِ ...

الزوجة: أنِّي ماذا؟ ... ما هو الموجب لحضور البوليس في بيتنا؟ ... أين زوجي؟

المحقق: زوجك يا سيدتي في ... في الحبس.

الزوجة: في الحبس؟

المحقق: ظننا أنَّكِ مقتولة.

الزوجة: مقتولة؟

المحقق: اختفاؤك جعل الظنون ...

الزوجة: اختفائي؟ ... إنِّي حقًّا كنت متغيبة ... لكن ... هل كل من يتغيَّب عن بيته تظنون أنَّه ...

المحقق: إذن ... كان مُجرَّد تغيب؟

الزوجة: طبعًا.

المحقق: لكن زوجك ...

الزوجة: زوجي ... أين زوجي ... قلت في الحبس؟

المحقق: نعم ... لكن اسمحي لي أُصحِّح الخطأ في الحال ... فورًا.

الزوجة: هذا أمر في غاية العجب! ... بأي حق يوضع في الحبس؟! ... إنَّه رجل طيب ... ولم يرتكب خطأ قط في حياته.

المحقق: أرجوكِ ... أرجوكِ ... لحظة واحدة! ... أين التليفون؟

(يتجه بسرعة إلى حيث يُوجد التليفون.)

الزوجة: هذا غريب! ... كل هذا غريب!

المحقق (في التليفون): ألو ... ألو ... اسمع ... إنِّي أتكلَّم من بيت الجريمة ... نعم ... نعم ... ضاحية الزيتون ... اسمع ما أقوله لك ... لا توجد جريمة ... يجب إطلاق سراح المتهم فورًا ... بالطبع ... لم يكن هناك قتل ... مُتأكِّد طبعًا ... مائة في المائة ... يا سيدي الفاضل لا يوجد قتل ... أتسمعني؟ ... كيف أتأكَّد؟ ... لأنَّ القتيلة موجودة أمامي

حيَّة ... أقصد المجني عليها ... قصدي التي كنَّا نظنها ... نعم ... نعم ... كانت مُتغيِّبة فقط ... المهم ... يجب الإفراج فورًا عن الزوج ... بأسرع ما يمكن ... وهو كذلك ... إنِّي هنا في الانتظار.

(يضع السماعة.)

الزوجة (للخادمة)**:** ماذا بكِ؟ ... أخبريني ... لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟ ... أمرك عجيب ... لم أرك بهذه الحالة من قبل ... ما هذا الوجه الأصفر؟!

الخادمة: لا تؤاخذيني يا ستي ... إنِّي كنت ... كنت ...

الزوجة: إنِّي لا أفهم ... لست أفهم بعد شيئًا مِمَّا يجري هنا.

المحقق: سأفهمك يا سيدتي ... استريحي لحظة! ... سأفهمك.

الحفار (يُنادي من الحديقة)**:** يا حضرة الضابط.

المحقق: ماذا؟ ... وجدتها؟

الحفار (في الخارج)**:** لم أجدها بعد ... هل أستمر؟

المحقق: بل قف ... إنَّها موجودة هنا الآن.

الحفار: الجثة؟

المحقق: هس! ... اسكت ... اترك كل شيء الآن وانصرف! ... لا لزوم الآن لذلك ... انصرف ... أرجوك ... بسرعة!

الزوجة (ناظرة إلى الحديقة)**:** مَنْ هذا الرجل؟ ... وماذا كان يفعل في الحديقة ... عجبًا؟! ... مَنْ الذي حفر هكذا تحت شجرة البرتقال؟ ... إنَّ زوجي سيغضب غضبًا شديدًا.

المحقق: نحن في شدة الأسف يا سيدتي ... لكن ...

الزوجة: لكن لماذا هذا الحفر تحت شجرة البرتقال؟

المحقق: كنَّا نُحاول البحث!

الزوجة: البحث؟ ... عن أي شيء؟

المحقق: عنكِ ... لا تُؤاخذينا!

الزوجة: عني؟ ... تبحثون عني تحت هذه الشجرة؟!

المحقق: كنَّا نحسبك مدفونة تحتها ... غيابك بدون إخطار جعل الشكوك تحوم حول هذا الأمر.

الزوجة: مدفونة تحت هذه الشجرة؟
المحقق: حسبنا أنَّكِ قُتلتِ ودُفنتِ هنا.
الزوجة: ومن الذي يقتلني ويدفنني هكذا؟
المحقق: اتجه الظن إلى زوجك.
الزوجة: زوجي؟ ... زوجي يفعل هذا بي؟ ... لماذا؟
المحقق: القرائن والشبهات ... ثم ... اعترافه.
الزوجة: اعترافه؟ ... اعترافه بماذا؟
المحقق: لم يعترف صراحة ... ولكن تفوَّه بكلام يُمكن أن يُؤخذ على أنَّه شبه اعتراف.
الزوجة: اعتراف بماذا؟
المحقق: بأنَّه قتلكِ ودفنكِ تحت هذه الشجرة؟
الزوجة: أهو قال إنَّه قتلني ودفنني؟ ... لماذا يكذب؟ لماذا يقول ما لم يحدث؟
المحقق: الحقيقة أنَّ هذا شيء غير مفهوم.
الزوجة: وما هو السبب الذي يُمكن أن يدفعه إلى التفكير في قتلي؟
المحقق: الواقع أنَّنا لم نتوصَّل إلى سبب مقنع.
الزوجة: إنَّنا زوجان متحابان.
المحقق: أعرف.
الزوجة: لم يقع بيننا خلاف قط.
المحقق: أعرف هذا أيضًا.
الزوجة: وكيف عرفت؟
المحقق: هو الذي قال لي.
الزوجة: قال لك إنَّنا مُتحابان ولم يقع بيننا قط خلاف؟
المحقق: نعم ... قال ذلك.
الزوجة: وبرغم هذا قال إنَّه قتلني؟
المحقق: لم يقلها صراحة ... ولكنِّي كدت أفهم من أقواله أنَّه ارتكب جريمة.
الزوجة: أما كان يُمكن أن تفهم من أقواله شيئًا آخر؟
المحقق: شيئًا آخر؟
الزوجة: إنِّي أفهم دائمًا من أقواله شيئًا آخر.

المحقق: الواقع أني ...

الزوجة: لم تفهم إذن جيِّدًا ما يقول.

المحقق: يجوز.

الزوجة: لعلك فهمت شيئًا آخر غير ما قال؟

المحقق: يجوز.

الزوجة: إذن هو لم يقل شيئًا عن القتل والدفن.

المحقق: يجوز.

الزوجة: إذن كيف قُبِضَ عليه وَوُضِعَ في الحبس؟

المحقق: حقًّا ... كيف تمَّ ذلك؟ ... لكن انتظري ... انتظري ... كان هناك الشاهد.

الزوجة: أي شاهد؟

المحقق: الدرويش.

الزوجة: درويش؟ ... مَنْ هذا؟

المحقق: رجل يعرف كل شيء ويرى كل شيء ... شهد أنَّ زوجك قتل زوجته ودفنها تحت هذه الشجرة.

الزوجة: شهد بذلك؟ ... شهد بأنَّه قتلني ودفنني؟ ... ومن أين جاء هذا الرجل؟

المحقق: جاء من القطار؟

الزوجة: من أي قطار؟

المحقق: من الهواء ... أقصد ... كان في القطار ... مع زوجك في القطار ... ثمَّ ناديناه فترك زوجك في القطار يُفتِّش، وجاءنا هنا وجلس معنا أنا وزوجك في هذا المكان!

الزوجة: ما هذا الخلط! ... هل تفهم ما تقول؟!

المحقق: لا.

الزوجة: ولا أنا ... لا أفهم.

المحقق: الواقع أنِّي لا أفهم ما كنت أقول ... يبدو أنَّه كلام لا معنى له.

الزوجة: طبعًا.

المحقق: ومع ذلك حصل ... كل هذا حصل ... جاءنا الدرويش وقال كلامًا كثيرًا ووافق عليه زوجك ... لم يُوافق عليه كله بالطبع ... ولكن القرائن والشبهات كانت قوية ضده!

الزوجة: إنَّكَ اعترفت الآن بأنَّ كلامك لا معنى له، فكيف تكون القرائن والشبهات قوية؟

المحقق: الواقع أنَّ كل شيء وقتئذٍ بدا وكأنَّ له معنى ... ولست أدري لماذا انهار كل هذا الآن.

الزوجة: إذن لو لم أعد في الوقت المناسب لما انهار شيء في نظرك؟

المحقق: بالطبع.

الزوجة: ولكان زوجي قد بقي في الحبس؟

المحقق: بالطبع.

الزوجة: وقُدِّم إلى المحكمة وحُكِمَ عليه.

المحقق: بالطبع.

الزوجة: وربما كان حُكِمَ عليه بالإعدام من أجلي وأنا على قيد الحياة؟!

المحقق: يجوز.

الزوجة: وكنت أنت تظل طول حياتك مستريح البال تعتقد أنَّ قرائنك وشبهاتك ودرويشك وشهادته وكل هذا الخلط ولا تؤاخذني ... أشياء حقيقية لها معنى ... أليس كذلك؟

المحقق: حقًّا.

الزوجة: أتعجبك هذه النتيجة؟

المحقق: إنِّي معذور يا سيدتي ... معذور ... زوجك مسئول معي ... نعم زوجك نفسه ساعدني على إقامة هذه الصورة غير الحقيقية للحادث.

الزوجة: زوجي نفسه ساعدك؟

المحقق: مساعدة عجيبة! ... لقد كان بيننا في بعض الأحيان شبه تعاون ... تعاون وثيق على البحث ... وهل كنت أعرف هذا الدرويش؟ ... إنَّه هو الذي أتى به إلى هنا.

الزوجة: إنَّ زوجي لم يُقابل أحدًا منذ خمس سنوات ... منذ أن ترك الخدمة وتقاعد.

المحقق: أعرف ذلك ... لكنَّه كان التقى بالدرويش في القطار عندما كان لا يزال في الخدمة.

الزوجة: وكيف أتى به إليك هنا الآن؟

المحقق: ناداه من هنا، وهو في القطار فلبَّى النداء.

الزوجة: لبَّى النداء؟!

المحقق: يظهر أنَّه سمع نداء زوجك من هنا، فترك زوجك في قطاره يُفتِّش هناك، وجاء يُحادثنا أنا وزوجك هنا.

الزوجة: معقول!

المحقق: أليس كذلك؟ ... إذن أنت ترين ذلك معقولًا؟

الزوجة: بدون شك ... هل أنت عندك شك؟!

المحقق: لا ولكن ... أخشى أن تكوني ... غير مصدقة!

الزوجة: وما الداعي إلى عدم التصديق؟

المحقق: ربما مثلًا ... ترين في هذا الكلام ...

الزوجة: شيئًا من الخلط؟!

المحقق: مثلًا!

الزوجة: ما دمت مُصِرًّا على أنَّ هذا حصل.

المحقق: أقسم لكِ إنَّه حصل ... أقسم بشرف وظيفتي!

الزوجة: لا تُقْسِم! ... إنَّ هذا قد حصل فعلًا.

المحقق: حصل فعلًا؟! ... إذن أنتِ مُصدِّقة؟!

الزوجة: كل التصديق.

المحقق: ولكنَّكِ كنتِ تُكذِّبين منذ لحظة، وترمينني بالخلط؟!

الزوجة: لأنِّي كنت أتكلَّم حسب عقلي!

المحقق: والآن؟

الزوجة: حسب ما حصل.

المحقق: ثقي كل الثقة أنَّ هذا حصل.

الزوجة: إنِّي واثقة ... بل إنِّي مستعدة الآن أن أرى كل ما تراه ... كل ما كنت تراه أنت وزوجي ... كان القطار هناك! ... ألم يكن القطار يمر من هذه الناحية؟ (تُشير إلى مكان القطار.)

المحقق: بالضبط!

الزوجة: نعم ... وكنتَ أنت وزوجي في الناحية الأخرى؟ (تُشير إلى المكان.)

المحقق: بالضبط!

الزوجة: وجاءكما الدرويش من هنا (تُشير إلى الجهة).

المحقق: بالضبط ... بالضبط!

الزوجة: إنِّي أرى كل هذا الآن!

المحقق: إذن كل شيء كان حقيقيًّا؟!

الزوجة: طبعًا.

المحقق: وكان له معنى!

الزوجة: طبعًا.

المحقق: إذن ما من شيء انهار ... كل ما أقمناه صحيح.

الزوجة: طبعًا صحيح ... كل هذا صحيح ... لأنَّ كل هذا حصل ... ولكن يوجد شيء آخر أيضًا قد حصل.

المحقق: ما هو؟

الزوجة: إنِّي عدت ... حصل أنِّي الآن قد عدت.

المحقق: حقًّا ... هذا حصل ... إنَّكِ عدتِ ... بالسلامة! وعندئذٍ يجب أن يتغيَّر كل هذا ... وأن نصنع شيئًا آخر، وهذا هو ما فعلته دون إبطاء ... ألم أتصل فعلًا بالتليفون لإطلاق سراح زوجك فورًا؟! وعمَّا قليل نراه هنا؟

الزوجة: أهو في الطريق الآن إلى هنا؟

المحقق: يجوز.

الزوجة: أخشى أن يكون الحبس قد أثَّر في صحته.

المحقق: إنَّه لم يقض فيه وقتًا طويلًا.

الزوجة: لم يسبق للمسكين أن حُبِسَ.

المحقق: إنَّ الحبس لدينا على كل حال ليس متعبًا إلى هذا الحد ... ومَنْ كان مثله يُراعى عادة ويوضع في مكان مريح.

الزوجة: إنَّه اعتاد الهواء الطلق.

المحقق: يوجد نوافذ في الحبس.

الزوجة: النوافذ التي اعتاد النظر منها تُطل على أشياء تتحرَّك.

المحقق: ولكنَّه منذ أن ترك الخدمة، وتقاعد هنا لم يعُد يرى شيئًا يتحرَّك.

الزوجة: إنَّه يرى الشجرة تتحرَّك.

المحقق: نعم ... الشجرة.

الزوجة (ناظرة إليها): لماذا فعلتم بها هذا؟ ... إنَّه سيحزن حزنًا شديدًا.

المحقق: لم يكن من هذا بُد ... ومع ذلك أعتقد أنَّها لم تُصب بسوء ... جذورها سليمة.

الزوجة: أرجو ذلك ... إنَّها حياته.

المحقق: أعرف ... رأيت ذلك بعيني.

الزوجة: ماذا رأيت؟

المحقق: رأيته هنا وهو يُحادثك ... إنَّه لم يكن يُحادثك ... إنَّه كان يتحدَّث عن الشجرة.

الزوجة: هو؟ إنَّه ما تحدَّث قط عن الشجرة.

المحقق: ولكنِّي سمعته بأذني.

الزوجة: ربما سمعت خطأ يا سيدي ... أنا التي كنت أحادثه عن الشجرة ... وأحادثه دائمًا عنها ... لأنِّي أعرف أنَّه يُحبها.

المحقق: بل كنتِ أنتِ تتحدثين عن ... ابنتك.

الزوجة: ابنتي ... حقًّا ... ولكنَّه هو الذي كان يُحدِّثني عن ابنتي ... وهو الذي دائمًا يُحدِّثني عنها.

المحقق: هذا عجيب ... ولكنِّي واثق مِمَّا أقول ... لا يُمكن أن أكون قد خلطت إلى هذا الحد.

الزوجة: لا يُمكن أن يكون هذا الذي تقول ... إنَّه دائمًا يحدثني عمَّا أحب ... وأنا أحدثه عما يُحب ... لذلك نحن متحابان ومتفاهمان.

المحقق: هذا هو الطبيعي ... ولكن هذا ما لم يحدث ... إنِّي واثق ... إنِّي لا يُمكن أن أكون قد خلطت إلى هذا الحد ... إنِّي سأُجَن ... سأُجَن في هذا البيت.

الزوجة: راجع ذاكرتك يا سيدي.

المحقق: ذاكرتي سليمة ... راجعي أنتِ يا سيدتي نفسك ... إنَّك كنتِ جالسة ها هنا تشتغلين بالإبرة وتتحدثين عن ابنتك التي لم تُولَد ... أمَّا هو فكان واقفًا أمامك هناك يُنظِّف مقصه وجاروفه ... وكان يتحدَّث عن الشجرة وثمرها ونموها.

الزوجة: بل كان يتحدَّث عن الثمرة التي كانت قد تحرَّكت في أحشائي ... وما كان يقدر لها من نمو.

المحقق: بل أنتِ يا سيدتي ...

الزوجة: بل هو ...

المحقق: أتريدين دليلًا ... لقد كنت تذكرين «السبوع» وسمعت بأذني حفلة السبوع وصوت دقات الهون ثمَّ أغنية «برجلاتك ... برجلاتك!»

الزوجة: أسمعت هذا؟

المحقق: كما سمعت صفارة القطار وضجيج عجلاته وأصوات التلاميذ في الرحلة المدرسية ينشدون «يا طالع الشجرة هات لي معك بقرة!»

الزوجة: وأين كنتَ أنتَ؟

المحقق: كنت أجلس ها هنا ... في هذا المكان بالذات.

الزوجة: إنِّي لم أركَ.

المحقق: أعتقد أنَّك لم تريني.

الزوجة: وماذا كنت تفعل في هذا المكان؟!

المحقق: كنت أُباشر التحقيق.

الزوجة: التحقيق؟

المحقق: نعم ... في مسألة اختفائك.

الزوجة: ولكني لم أكن تغيَّبت بعد ... لم أكن قد خرجت من المنزل.

المحقق: ولكنِّي جئت هنا لأنَّكِ خرجت من المنزل وتغيَّبت واختفيت.

الزوجة: ولكنك رأيتني هنا أُحادث زوجي ويُحادثني.

المحقق: نعم ... هذا رأيته بعيني وسمعته بأذني.

الزوجة: لا بُدَّ أنَّ هذا حدث ... ما دمت تُؤكِّد أنَّك رأيته بعينك وسمعته بأذنك.

المحقق: إني مُتأكِّد وواثق.

الزوجة: لكن ... ما دمت قد رأيتني هنا بعينك وسمعتني بأذنك أحادث زوجي ويُحادثني فلماذا مضيت تُباشر التحقيق في أمر تغيُّبي واختفائي؟

المحقق: لأني قبل ذلك كنت قد بُلِّغت بأمر تغيبك واختفائك؟

الزوجة: من الذي بلَّغك؟

المحقق: لا أدري بالضبط ... إنَّها إشارة تليفونية إلى قسم البوليس من المنزل ... من هذا المنزل ... من الخادمة أو من زوجك ... لم أحقِّق بعد في هذه النقطة ... ولم يعد هنالك داعٍ إلى التحقيق فيها ... طبعًا ... أليس كذلك؟

الزوجة: بل هنالك داعٍ إلى التحقيق فيها ... يهمني أن أعرف من الذي أبلغ البوليس؟

المحقق: ما دمت قد حضرت ولم تقع جريمة فلا يحق لي الاستمرار في التحقيق.

الزوجة: أتسمح لي أسأل الخادمة؟!

المحقق: تفضلي!

الزوجة (تُشير إلى الخادمة القريبة من المدخل): اقتربي! إنَّك تصغين إلى كل شيء ... أجيبي إذن عن السؤال؟

الخادمة: لست أنا التي اتصلت بالبوليس.

الزوجة: إذن هو زوجي.

الخادمة: لم أره يفعل ... كنت مشغولة في المطبخ.

المحقق: ألم يقل لك إنَّه ينوي الاتصال بالبوليس؟

الخادمة: لا ... قال لي فقط: كم يستغرق من الوقت الذهاب لشراء بكرة خيط والعودة ... فأجبته بأنَّ سيدتي قالت: مقدار نصف ساعة ... فقال: عندما تنتهي نصف الساعة أخبريني، وتركني وذهب بفأسه إلى الحديقة ... كان ذلك في اليوم التالي.

المحقق: اليوم التالي؟

الخادمة: نعم ... كان قد مضت ليلة على خروج سيدتي.

المحقق: ولم يبد عليه القلق؟

الخادمة: في اليوم الأول لا ... قال لي: ما دامت سيدتك لم تعُد بعد، فنصف الساعة لم ينته ... إنَّها دقيقة في حسابها ... وإنِّي أثق في هذا الحساب أكثر من ثقتي في دوران الأرض ... وفي اليوم التالي بعد الليلة الثانية ...

المحقق: ماذا قال في اليوم الثاني؟

الخادمة: قال إنَّ من الممكن للأرض أن تكون قد توقَّفت يومًا عن الدوران لحين حضور سيدتك في موعدها.

المحقق: وفي اليوم الثالث؟

الخادمة: في اليوم الثالث بدأ يقلق.

الزوجة: المسكين!

المحقق: وماذا قال؟

الخادمة: قال إنَّ بكرة الخيط التي اشترتها سيدتك قد لفَّت بها ولا شكَّ الكرة الأرضية لفَّتين ... ولكن أن تلفَّها ثلاث لفات ببكرة خيط واحدة ... هذا كثير.

الزوجة: حقًّا ... إنَّه على حق.

المحقق: وماذا فعل؟

الخادمة: عندئذٍ فقط فهمت أنَّه سيفعل شيئًا.

الزوجة: هو إذن الذي اتصل بالبوليس.

الخادمة: لا يوجد غيره.
الزوجة: يا للأسف! ... إنَّها علامة سيئة.
المحقق: أيسوءكِ أن يقلق عليكِ؟!
الزوجة: لا أُحِبُّ أن يُصاب بالقلق.
المحقق: في مثل هذه الحالة القلق واجب.
الزوجة: إنَّه لم يعرف القلق قط ... وما كان يجب أن يعرفه.
المحقق: هذا دليل على مكانتك من نفسه.

(طرق على الباب الخارجي.)

الزوجة: هذا هو ...
الخادمة (تُسرع لتفتح): نعم هو.
المحقق: إنِّي بقيت هنا خصيصى لأعتذر إليه بنفسي!
الخادمة (من الخارج): سيدي! ... سيدي!

(يظهر الزوج عليه أمارات التعب.)

الزوجة: زوجي العزيز!
الزوج: زوجتي العزيزة!

(يتعانقان.)

الزوجة (تتفحص زوجها): هل أنت بخير؟
الزوج (يتفحَّصها): وأنتِ؟
الزوجة: إنِّي بخير كما ترى.
الزوج: وأنا أيضًا.
المحقق: اسمحوا لي الآن بالانصراف ... لقد انتظرت خصيصى حتَّى أُقدِّم إليك الاعتذار بنفسي.
الزوج: الاعتذار؟ لماذا؟
المحقق: لهذا الإزعاج.
الزوج: تقصد الحبس؟

المحقق: إنِّي في شدة الأسف.

الزوج: لا تأسف ... إنِّي شخصيًّا لست بآسف ... إنَّ الحبس لم يُسبِّب لي أي إزعاج ... بالعكس.

المحقق: حقًّا؟!

الزوج: ثق من ذلك ... ما كنت أتصوَّر أنَّ الحبس له هذه المزايا.

المحقق (في دهشة)**:** أي مزايا؟

الزوج: ألم تُجرِّب الحبس؟

المحقق: مَنْ؟ أنا؟

الزوج: بالطبع لم يسبق لك أن حُبِست.

المحقق: بالطبع لا.

الزوج: فاتك شيء مهم.

المحقق: ما هو؟

الزوج: الشعور بأنَّك جنين عاد إلى بطن أمه ... يتغذَّى من الداخل ... ويتنفَّس من الداخل ... وينتظر يدًا تجذبه إلى الخارج في وقت من الأوقات.

الزوجة: حبذا لو عادت إلى البطن وخرجت حية!

الزوج: ذلك لأنَّ لساعة الخروج فرحة لا تعدلها فرحة!

المحقق: طبعًا ... ساعة الإفراج مفرحة دائمًا للسجين.

الزوج: ساعة خروج البذرة من بطن الأرض خضراء حية!

الزوجة (مرددة)**:** حبذا لو عادت إلى البطن وخرجت حية!

المحقق: الحمد لله لقد خرجت سالمًا منشرح الصدر ... ولم تكن مدة حبسك طويلة ... والآن ... فلنتصافح! وأكرر لك اعتذاري وأسفي ... وأستأذن.

(يُصافح الزوج ثم الزوجة وينصرف.)

الزوج (وقد عاد من تشييع المحقق إلى الباب الخارجي)**:** والآن يا زوجتي العزيزة ... إلى العمل ... أين جاروفي وفأسي؟

الزوجة: أتذهب إلى حديقتك توًّا وتُجْهِد نفسك؟!

الزوج: أتقولين للمولود ساعة خروجه من بطن أمه يتحرَّك: لا تُجْهِد نفسك!

الزوجة: لا ... بل أزغرد.

الزوج: إذن زغردي! زغردي! (يتجه إلى الحديقة وينظر إليها ويصيح) يا للمصيبة! ... يا للمصيبة!

الزوجة: ماذا يا عزيزي؟!

الزوج: ما هذا الحفر كله؟ ... ما هذا الحفر كله؟! ... ما كنت أظنهم سيحفرون بهذا المقدار؟ ... الويل لهم ولي إذا كانوا قد أصابوا الشجرة بسوء.

الزوجة: كنت أعرف أنَّك ستغضب وستحزن!

الزوج (وهو يختفي في الحديقة)**:** الويل لهم ولي! ... الويل لهم ولي!

الخادمة (تظهر)**:** لماذا يصيح سيدي هكذا؟

الزوجة: الشجرة!

الزوج: كانوا يحفرون كالمجانين!

الزوجة: أكنتِ هنا طول الوقت؟

الخادمة: نعم.

الزوجة: لكِ أن تنصرفي إلى منزلك الآن وتأتي صباح الغد ... ما نظن أنَّنا في حاجة إليكِ اليوم ... يكفي أنَّكِ لزمت البيت وحافظتِ عليه في غيبتنا.

الخادمة: شكرًا لك يا سيدتي ... شكرًا ... زوجي الكفيف كان في الحقيقة مريضًا ... وهو في حاجة إليَّ اليوم ... تركتك في خير يا سيدتي! (تنصرف.)

الزوج (يصيح في الحديقة)**:** هذا عجيب! ... هذا عجيب.

الزوجة (مطلة عليه)**:** ماذا حدث؟

الزوج (يظهر)**:** السحلية ... السحلية ظهرت ... عادت.

الزوجة: عادت؟!

الزوج: نعم ... عادت الشيخة خضرة ... أبصرتها تتهادى في ثوبها الأخضر ... وتتجه إلى مسكنها ... ثمَّ تقف كالمشدوهة ... فقد وجدت حفرة هائلة في انتظارها.

الزوجة: في انتظارها؟!

الزوج: أين كانت يا ترى؟

الزوجة: كانت بدون شك في مكان ما.

الزوج: ما هو هذا المكان الذي يُمكن أن تكون فيه بعيدًا عن مسكنها طول هذه المدة؟! ... بهذه المناسبة: أين كُنْتِ؟

الزوجة: أنا؟

الزوج: نعم أنتِ ... أين كنتِ طول هذه المدة؟

الزوجة: ذهبت كما تعلم ... أشتري خيطًا.

الزوج: مفهوم ... لمدة نصف ساعة؟

الزوجة: صحيح.

الزوج: ولكنَّكِ لم تعودي بعد نصف ساعة ... بل عُدْتِ بعد ثلاثة أيام.

الزوجة: ثلاثة أيام؟ ... هل أنت مُتأكد؟

الزوج: كل التأكيد.

الزوجة: صحيح ... صحيح ... أنت على حق.

الزوج: كنتِ في مكان ما بدون شك طول هذه الأيام الثلاثة؟!

الزوجة: صحيح ... في مكان ما.

الزوج: ما هو هذا المكان الذي يُمكن أن تكوني فيه بعيدة عن منزلك طول هذه المدة؟

الزوجة: صحيح هذا سؤال يُمكن أن يُسأل.

الزوج: بل يجب أن يُسأل.

الزوجة: يجب؟! ... ولماذا يجب؟

الزوج: لأنَّ ... لأنَّه ... لأنِّي يجب أن أعرف.

الزوجة: أضروري أن تعرف؟

الزوج: ضروري جدًّا ... ألا ترين من الضروري أن أعرف أين كنت مُتغيِّبة كل هذه المدة؟!

الزوجة: وإذا لم أقل لك؟!

الزوج: ولماذا لا تقولين لي؟ ... هناك إذن سبب يدفعك إلى الكتمان.

الزوجة: سبب؟!

الزوج: سبب مخجل على الأرجح.

الزوجة: مخجل؟!

الزوج: أقول على الأرجح ... لأنَّ الإنسان لا يكتم غالبًا إلَّا الأسباب التي تدعو إلى الخجل ... ولكن هذا ليس شرطًا لازمًا في كل الأحوال.

الزوجة: خصوصًا معي.

الزوج: خصوصًا معك. لذلك أستبعد حدوث أي شيء مخجل.

الزوجة: إنَّك تُضْحِكني.

الزوج: سحبت كلامي.

الزوجة: أحسنت صنعًا ... اتفقنا إذن ... فلنتكلَّم في شيء آخر.

الزوج: أفهم من ذلك أنَّكِ مُصرَّة على الكتمان؟!

الزوجة: إنِّي لم أركَ قط تلح هكذا في السؤال؟!

الزوج: لأنَّ الموقف يُغري بالتساؤل ... ربما كان الأمر في حقيقته لا يحتاج إلى كتمان ... ولكن كتمانك وحده يدفعني إلى أن أعرف سببه ... لماذا تكتمين؟ ... لو كان هناك ما يخجل كنت أفهم ... ولكن ما دمنا استبعدنا هذا السبب، فما هو السبب الآخر؟

الزوجة: السبب الآخر؟! ... أي سبب آخر؟

الزوج: السبب غير المخجل.

الزوجة: مخجل مثل ماذا؟

الزوج: لا أريد أن أضرب أمثلة ... كل سبب تخجلين من ذكره فهو مخجل ... هذا ما أقصده ... حتَّى وإنْ كان في نظر الناس جميعًا لا غبار عليه ... لكن ثقي ... وأقسم لكِ ... وأظن لا داعي إلى هذا القسم فأنتِ تعرفين ... مهما تكن الأسباب ... ومهما يكن المكان الذي تغيَّبتِ فيه ... ومهما يكن الفعل الذي حدث منك طيلة هذه الأيام الثلاثة، فإنَّ كل هذا لن يُغضبني أو يُغيِّر من صلة أحدنا بالآخر ... وأنتِ متأكدة من ذلك ... أليس كذلك؟!

الزوجة: صحيح ... إنِّي متأكدة.

الزوج: نحن الآن في مرحلة من العمر لا يُمكن أن يُحاكم فيها أحدنا الآخر من أجل شيء على الإطلاق.

الزوجة: صحيح.

الزوج: إنَّ السقف الذي يظلنا معًا هو كل ما لنا ... وما من شيء تحته بعد ذلك يُمكن أن يُثيرنا.

الزوجة: صحيح.

الزوج: لم يعد لدينا وقت في الحياة ... ولا جهد ننفقه في محاسبة أحدنا الآخر محاسبة جدية على ما ينبغي وما لا ينبغي ... افرضي أنَّكِ في هذه الأيام الثلاثة ارتكبتِ جرائم خطيرة: زنيتِ وسرقتِ وقتلتِ ... أو أكثر من ذلك وأفظع.

الزوجة: ما هذا الذي تقول؟

الزوج: افرضي ... افرضي! ... ماذا تتوقعين أن أصنع؟ في مثل سني وسنك إذا لم أحاول إنقاذك فعلى الأقل لن أكون سببًا في القضاء عليكِ ... أليس هذا ما تتوقعين مني؟!

الزوجة: طبعًا.

الزوج: إذن ... الشخص الوحيد الذي يجب أن لا تكتمي عنه ... هو أنا.

الزوجة: طبعًا.

الزوج: هل لكِ أحد الآن في هذه الدنيا غيري؟

الزوجة: لا.

الزوج: إذن ... لماذا تكتمين عني؟!

الزوجة: إنِّي لم أُفكِّر في الكتمان ... ويُدهشني أنَّك تتكلم طول الوقت عن كتماني ... إنِّي لست أحاول أن أكتم شيئًا ... لم يخطر على بالي قط أن أكتم شيئًا عنكَ أو لا أكتم ... من أين جاءتكَ هذه الفكرة؟! فكرة الكتمان؟!

الزوج: عجبًا! ... لا تُريدين الكتمان إذن؟! ... هي فكرتي إذن؟!

الزوجة: بالطبع ... هي فكرتك.

الزوج: إذن ... المسألة حلت.

الزوجة: أنتَ الذي عقَّدت الأمور.

الزوج: الظاهر ... إذن ما دام الأمر كذلك فكل شيء إذن على ما يُرام؟!

الزوجة: طبعًا.

الزوج: إذن سأتلقَّى منكِ الجواب عن السؤال؟

الزوجة: أسنعود إلى السؤال؟

الزوج: عجبًا! ... ألم تعدي بالإجابة؟

الزوجة: أنا وعدت؟!

الزوج: سبحان الله! ... ألم تقولي الآن إنَّك لا تُريدين أن تكتمي عني شيئًا؟

الزوجة: نعم قلت.

الزوج: تكلمي إذن: أين كُنْتِ؟

الزوجة: كنت في مكان ما.

الزوج: بالطبع ... لا بُدَّ أنَّكِ كُنْتِ في مكان ما ... لأنَّك لا يُمكن أن تكوني في غير مكان ... لكن ما هو هذا المكان؟ ... بيت أحد أقاربك؟

الزوجة: لا.

الزوج: بيت أحد معارفك؟

الزوجة: لا.

الزوج: إنَّه بيت على كل حال؟
الزوجة: لا.
الزوج: فندق؟
الزوجة: لا.
الزوج: مستشفى؟
الزوجة: لا.
الزوج: مصحة؟
الزوجة: لا.
الزوج: سجن؟
الزوجة: لا.
الزوج: «بانسيون»؟
الزوجة: لا.
الزوج: ماخور؟
الزوجة: لا.
الزوج: مرقص؟ ... ملهى؟
الزوجة: لا ... لا.
الزوج: محل خياطة؟ ... محل أزياء؟
الزوجة: لا ... لا.
الزوج: محل بقالة ... عطارة ... خردوات؟
الزوجة: لا ... لا ... لا.
الزوج: ملجأ أيتام؟
الزوجة: لا.
الزوج: روضة أطفال؟
الزوجة: لا.
الزوج: مدرسة بنات؟
الزوجة: لا.
الزوج: عند مُنجِّمة؟
الزوجة: لا.

الزوج: عند «كودية»؟
الزوجة: لا.
الزوج: في مسجد؟
الزوجة: لا.
الزوج: عند أولياء الله الصالحين؟
الزوجة: لا.
الزوج: عند القوادين والنشالين؟
الزوجة: لا.
الزوج: في ذهبية في النيل؟
الزوجة: لا.
الزوج: في عوَّامة؟
الزوجة: لا.
الزوج: في قطار!
الزوجة: لا.
الزوج: في سيارة؟
الزوجة: لا.
الزوج: في طائرة؟
الزوجة: لا.
الزوج: في باخرة؟
الزوجة: لا.
الزوج: في غوَّاصة؟
الزوجة: لا.
الزوج: في عزبة في الريف؟
الزوجة: لا.
الزوج: في خيمة في الصحراء؟!
الزوجة: لا.
الزوج: في هودج على جمل؟
الزوجة: لا.
الزوج: فوق حصان؟

الزوجة: لا.
الزوج: فوق حمار؟
الزوجة: لا.
الزوج: فوق متوسيكل.
الزوجة: لا.
الزوج: فوق الهرم؟
الزوجة: لا.
الزوج: فوق السطوح؟
الزوجة: لا.
الزوج: فوق الرصيف؟
الزوجة: لا.
الزوج: على الحشائش؟
الزوجة: لا.
الزوج: على الشواطئ؟
الزوجة: لا.
الزوج: في إحدى «الكباين»؟
الزوجة: لا.
الزوج: تحت «الشماسي»!
الزوجة: لا.
الزوج: تحت «الكباري»!
الزوجة: لا.
الزوج: عند طبيب؟
الزوجة: لا.
الزوج: عند «داية»؟
الزوجة: لا.
الزوج: عند حلَّاق؟
الزوجة: لا.
الزوج: عند عشيق؟
الزوجة: لا.

الزوج: عند «بلطجي»؟
الزوجة: لا.
الزوج: في «غرزة» حشيش؟
الزوجة: لا.
الزوج: في سوق الخضار؟
الزوجة: لا.
الزوج: في سوق السمك؟
الزوجة: لا.
الزوج: في سوق «الكانتو»؟
الزوجة: لا.
الزوج: في سوق السلاح؟
الزوجة: لا.
الزوج: في معمل؟
الزوجة: لا.
الزوج: في مشغل؟
الزوجة: لا.
الزوج: في مغسل؟
الزوجة: لا.
الزوج: في مسمط؟
الزوجة: لا.
الزوج: في العنابر؟
الزوجة: لا.
الزوج: في المقابر؟
الزوجة: لا.
الزوج: إذن أين كنت؟ ... أين كنت؟ ... أين؟ ... أين؟ ... أين؟ ... رأسي سينفجر ... إنِّي، سأجن.
الزوجة: لماذا تُعطي كل هذه الأهمية للمكان الذي كنت فيه؟
الزوج: لماذا أُعْطِيه كل هذه الأهمية؟ ... ألا ترين أهميته الآن؟ ... بعد أن طفت بك كل مكان في الأرض والسماء دون أن أعثر عليه؟

الزوجة: لست أرى أهمية لذلك؟

الزوج: أنتِ لا ترين لأنَّكِ تعرفين أين هو ... أمَّا أنا فالأمر أصبح بالنسبة إليَّ خطيرًا خطورة هائلة.

الزوجة: خطورة هائلة؟!

الزوج: بالتأكيد ... لا بُدَّ أن أعرف أين هذا المكان ... هذا المكان الذي لا سبيل إلى معرفته.

الزوجة: ولماذا لا تُريح دماغك ودماغي من هذا الموضوع؟! ... ألا يكون ذلك أحسن؟

الزوج: مستحيل ... الآن مستحيل ... أتتصوَّرين أنتِ هذا؟ ... أتتصوَّرين أنَّ هذا مُمكن؟ ... أن أُريح دماغي وأنام أو أعمل أو آكل أو أشرب دون أن أدير في رأسي هذا السؤال مرات ومرات؟

الزوجة: أأنتَ تشك في أمري إلى هذا الحد؟!

الزوج: ليس الشك ... ليس الشك ... المسألة لا علاقة لها بشك في أمرك ولا بنقد لتصرفاتك ... ولا لشيء من هذه الأشياء ... وقد سبق أن أكَّدْت لكِ ذلك؟ ... يجب أن تفهميني جيِّدًا ... المسألة الآن أخطر من ذلك!

الزوجة: إنَّك تُبالغ ... لست أرى في المسألة أي خطورة؟

الزوج: ربما ... ربما كان الأمر فعلًا كما تقولين ... ربما كان غاية في التفاهة ... غاية في البساطة ... لكن مجرد إخفائه ... مجرد الجهل به ... أتُدركين قصدي؟

الزوجة: لا.

الزوج: إنَّ مجرد تركي بغير إجابة عن سؤالي البسيط لن يدعني أهدأ ... هل فهمتِ الآن؟

الزوجة: هو إذن الشك في أمري؟

الزوج: لا ... لا ... ليس هذا ... هو شيء آخر ... لست أدري كيف أشرحه لكِ.

الزوجة: إنِّي حقًّا لم أعد أفهمك ... إنِّي لم أركَ قط من قبل في مثل هذه الحالة.

الزوج: لأنِّي لم أواجه من قبل مثل هذه الحالة! ... سؤال بسيط لا أجد عنه جوابًا ... ولا سبيل إلى معرفة الجواب.

الزوجة: هذا شيء يحدث كل يوم، ولا يدعو إلى تكدير الخاطر وشغل البال.

الزوج: ليس في هذا الوضع ... ليس في مثل حالتنا هذه ... اسمعي! ... وافهمي جيِّدًا! ... افرضي أنَّنا تركنا هذه المسألة، وانصرف كل منَّا إلى عمله ومشاغله ... هل من

الممكن أن أكف عن التساؤل: أين كانت زوجتي خلال تلك الأيام الثلاثة؟ ... في أي مكان؟ ... لأنَّه لا بُدَّ أنَّكِ كنتِ في مكان ما ... هذا باعترافك ... بل وبالبداهة أيضًا ... لا يُمكن إلَّا أن تكوني في مكان ... وقد طفنا الآن معًا بكل ما يمكن أن يكون مكانًا؛ فأجبت بأنَّكِ لم تكوني فيه ... وأنا لا أشك لحظة في صدقك ... إذ ما من شيء يدعوك إلى الكذب.

الزوجة: لا ... لم أكذب.

الزوج: عندما قلت لا، فهي حقيقة لا.

الزوجة: ثق من ذلك.

الزوج: إنِّي واثق ... بقي إذن إجابتكِ عن السؤال الأصلي: أين هذا المكان؟ ... هذا المكان الذي كُنْتِ فيه؟ ... ولكنَّكِ هنا تلزمين الصمت ... الصمت القاطع ... الصمت المخيف ... المفزع ... المرعب!

الزوجة: إنَّك تستخدم ألفاظًا غريبة!

الزوج: إنَّها أبسط الألفاظ تعبيرًا عمَّا في نفسي الآن ... بودِّي لو أقول ... الصمت القاتل.

الزوجة: القاتل؟!

الزوج: نعم ... إنَّكِ ستقتلينني قتلًا ... لو تُرِكت على ما أنا فيه ساعة أخرى ... فقد تُرتَكَب جريمة!

الزوجة: ما هذا الكلام الذي تقوله؟

الزوج: إنَّكِ تتكلَّمين هكذا ببرود وفتور ... كأنَّ هذه المسألة كلها غاية في البساطة.

الزوجة: وهي فعلًا غاية في البساطة.

الزوج: عندكِ أنتِ ... لأنَّك تُريدين فيما يظهر أن تُعذِّبيني!

الزوجة: أنت الذي تُعذِّب نفسك بهذا الحديث الفارغ.

الزوج: إنَّه ليس فارغًا ... إنَّه شيء خطير ... خطير جدًّا.

الزوجة: لم أعد أفهمك ... منذ عودتك الآن من الحبس وأنا لا أفهم ما تقول.

الزوج: وهل كان الحبس إلَّا بسببك؟!

الزوجة: لم يكن بسببي.

الزوج: بسبب اختفائك؟

الزوجة: لم أكن مختفية.

الزوج: كُنْتِ في مكان لا يعلمه أحد ... حتَّى ولا البوليس.

الزوجة: لا شأن لي بالبوليس!
الزوج: ولا شأن لكِ بزوجك؟!
الزوجة: وما دخلك في الأمر؟!
الزوج: اتهموني بقتلك ... لأنَّكِ كُنْتِ في مكان لا يعلمه أحد.
الزوجة: هذه غلطة من اتهمك.
الزوج: وليست غلطتك؟
الزوجة: لا.
الزوج: ألم تُحاولي أن تُخطريني عن تغيبك بالتليفون؟!
الزوجة: لا.
الزوج: ألم تُفكِّري في الإزعاج الذي يُمكن أن يُسبِّبه هذا التغيُّب ثلاثة أيام متوالية؟
الزوجة: لا.
الزوج: ألم يخطر على بالك أنَّ تصرُّفك هذا ممكن أن يُؤدِّي إلى نتائج سيئة؟
الزوجة: لا.
الزوج: أخرجتِ وأنتِ مزمعة أن تغيبي هذه الأيام الثلاثة؟
الزوجة: لا.
الزوج: إذن خرجت فصادفتك ظروف جعلتك تتغيَّبين دون ...
الزوجة: لا.
الزوج: إذن قد فكَّرتِ في التغيُّب قبل الخروج؟ ... سابق تفكير.
الزوجة: لا.
الزوج: اسمعي وافهمي جيِّدًا لا يُمكن أن يكون الجواب «لا» في الحالتين ... إمَّا أنَّكِ فكَّرتِ في التغيُّب أو لم تُفكِّري ... هل فكَّرتِ؟!
الزوجة: لا.
الزوج: إذن لم تُفكِّري؟
الزوجة: لا.
الزوج: إنَّك تعبثين بي ... هذا واضح جدًّا ... إنَّك تُريدين العبث بي ... أليس هذا ما تقصدين الآن؟ ... هذا العبث بي هو ما ترمين إليه ... أليس كذلك؟
الزوجة: لا.
الزوج: موقفك هذا لن أحتمله طويلًا ... إنِّي أنذرك ... هل تُريدين مني أن ألجأ إلى العنف؟

الزوجة: لا.

الزوج: إنِّي لم أكن قط عنيفًا معكِ ... ولكن الزمام قد يفلت من يدي ... وقد أُلْحِق بكِ أذى ... أو أُلْحِق الأذى بنفسي ... هل تُريدين أن أُلْحِق بك أذى؟!

الزوجة لا.

الزوج: هل تُريدين أن أُلحق الأذى بنفسي؟

الزوجة: لا.

الزوج: إذن تكلَّمي ... قولي شيئًا ... صدري أخذ يضيق ... ما هو غرضك من هذا الصمت؟ ... أتخافين أن ينالك ضرر من الكلام والمصارحة؟

الزوجة: لا.

الزوج: لماذا الصمت إذن؟ ... ما حكمته؟ ... لعل له عندك ما يُبرِّره ... لعل له في نظرك حكمة ... ألهذا الصمت حكمة عندك؟

الزوجة: لا.

الزوج: إذن ما دام الصمت ليست له عندك حكمة ولا غرض ولا تبرير فما معناه؟ ... أله عندك معنى؟

الزوجة: لا.

الزوج: تكلَّمي إذن! ... ألا تستطيعين الكلام؟

الزوجة: لا.

الزوج: لماذا؟ ... إنَّكِ لستِ خرساء ... لكِ لسان يستطيع أن يتكلَّم ... ولكن الخرس يُصيب لسانك عندما أسألك أن تُجيبي ... لأنَّك لا تُريدين أن تُجيبي ... إنك لا تريدين الإجابة ... هذا كل ما في الأمر ... لا تريدين ... أليس كذلك؟

الزوجة: لا.

الزوج: في كل الأحوال «لا»! ... ألن تَكُفِّي عن هذا العبث؟! ... ألن ينتهي عبثك هذا بي؟ ... ما من إنسان يحتمل هذا! ... ما من إنسان ... إنِّي صبرت عليكِ أكثر مِمَّا ينبغي ... ولكنِّي أعرف كيف أُرْغمك على الكلام ... سأُرْغِمك إرغامًا ... سأجعل لسانك هذا ينطق ... سأُرِيكِ كيف ينطق بالجواب ... (يطبق على عنقها) انطقي الآن!

الزوجة: لا ... لا.

الزوج: قلت لكِ انطقي! ... تكلَّمي!

الزوجة: لا ... لا ... لا.

الزوج: لا تضطريني إلى الضغط على عنقك أكثر من ذلك! ... تكلَّمي! ... تكلَّمي! ... فلينطق لسانك بالجواب!

الزوجة (في حشرجة)**:** لا ... لا ... لا ... لا.

الزوج: لا تُريدين! ... تكلَّمي قُلْتُ لك ... تكلَّمي ... قلت لكِ انطقي ... انطقي!

(يرى رأسها ينحدر في يده ... فيهزها فزعًا وقد رآها فارقت الحياة.)

بهانة! ... بهانة! ... زوجتي! ... عزيزتي! ... بهانة ... بهانة ... لا حول ولا قوة إلَّا بالله! ... أكان الأمر يحتاج إلى هذا إلى ... إلى هذا ... ما العمل الآن؟ ... ما العمل؟ ... يجب أن أفعل شيئًا! ... وبسرعة! ... بسرعة! ... قبل كل شيء يجب أن أُبلغ البوليس ... وأُسلِّم نفسي ... هذا هو الواجب ... قتلت زوجتي لأنَّها ... لأنِّي ... لأنَّها ...

(يظل يردد ذلك وهو متجه إلى حيث جهاز التليفون فوق المنضدة، ولكنَّه ينحرف عنه ويختفي في الداخل لحظة، ثمَّ يعود بغطاء فرش أبيض يغطي به زوجته الميتة ويزحزحها قليلًا إلى جهة مستترة ... ثمَّ يعود إلى التليفون ويُدير الرقم ويرفع السماعة إلى أذنه، وعندئذٍ يظهر في الجانب الآخر من المسرح «المحقق» أمام مكتبه يرفع سماعته، ويدور بينهما الحديث.)

الزوج: ألو ... حضرة الضابط؟!

المحقق: بهادر أفندي؟! ... عرفتك من صوتك.

الزوج: نعم ... أنا هو.

المحقق: خيرًا! ... أُكرِّر لك أسفي مرة أخرى ... أفندم! ... أنا في الخدمة!

الزوج: شكرًا! ... أنا ... أنا الآن أتكلَّم من المنزل بخصوص ...

المحقق: بخصوص ...؟

الزوج: الواقع أنِّي أردت أن ... أُريد أن ... أبلِّغ عن ...

المحقق: تفضَّل! ... أنا تحت تصرُّفك ... لا تتردَّد ... اطلب ما تريد!

الزوج: الواقع أنِّي رأيت من واجبي أن أُبلغ ...

المحقق: تبلغ؟ ... هل زوجتك بخيرٍ؟

الزوج: لا ... إنَّ زوجتي قد ...

المحقق: لا تقل إنَّها اختفت.

الزوج: فعلًا ... فعلًا ... إنَّها اختفت بالفعل ... لكن ...

المحقق: مرة أخرى؟! ... اختفت مرة أخرى؟!

الزوج: نعم ... ولكن ...

المحقق: هذا غريب ... اسمح لي أقول لكَ إنَّ زوجتك غريبة الأطوار! ... هذا الاختفاء المُتكرِّر أصبح عندها نوعًا من الهواية!

الزوج: حقًّا ... لكن ...

المحقق: ألم تقل لك أيضًا هذه المرة إلى أين ذهبت؟

الزوج: لا ... ولكن ...

المحقق: لعلَّها ذهبت حيث كانت في المرة السابقة.

الزوج: لا ... لكن ...

المحقق: مَنْ أدراك؟ ... هل قالت لك ذلك؟

الزوج: إنَّها لم تقل لي شيئًا.

المحقق: سألتها بالطبع أين كانت في المرة السابقة.

الزوج: سألتها ... سألتها ولم تُرِدْ أن تقول لي شيئًا.

المحقق: إذن أنت تجهل أين كانت؟

الزوج: تمام الجهل.

المحقق: هذا غريب ... وذهبت هذه المرة أيضًا؟

الزوج: ذهبت ... نعم ذهبت ... لكن ...

المحقق: لم تقل لك أين؟

الزوج: لا ... لم تقل شيئًا ... لكن ...

المحقق: وما الذي يجعلك تظن أنَّها لم تذهب هذه المرة أيضًا إلى حيث ذهبت في المرة السابقة؟

الزوج: لا أدري ... لكن ...

المحقق: أنت إذن تجهل كل شيء عن أسرارها الخاصة؟

الزوج: كل الجهل.

المحقق: وهي لا تُريد أن تقول لك شيئًا.

الزوج: لا ... لا تُريد.

المحقق: وذهبت هكذا هذه المرة كما سبق لها أن ذهبت في المرة السابقة؟
الزوج: نعم ... ذهبت ... لكن ...
المحقق: اسمع إذن! ... اسمع نصيحتي لا تُزْعِج نفسك!
الزوج: لا أزعج نفسي؟
المحقق: على الإطلاق ... إنَّها ستعود ... كما سبق أن عادت.
الزوج: ستعود؟!
المحقق: إنِّي على ثقة ... لا تقلق عليها.
الزوج: لا أقلق عليها؟!
المحقق: هذا خير ما أراه لك ... هدِّئ نفسك ... ولا تشغل بالك وأفلِح حديقتك، دعها لشأنها كما أرادت ... تعود إلى منزلها وقتما تريد أن تعود.
الزوج: أهذا رأيك؟!
المحقق: نعم هذا رأيي ... وهذه خير نصيحة أُقدِّمها إليكَ ... اترك هذا الموضوع ... ولا تشغل بالك به على الإطلاق ... الزم الصمت والهدوء ... ولا تقلق!
الزوج: ألزم الصمت والهدوء ولا أقلق!
المحقق: تمامًا.
الزوج: ولا أفعل شيئًا على الإطلاق!
المحقق: هذا ما أنصحك به ... بكل إخلاص!
الزوج: شكرًا ... شكرًا.
المحقق: العفو ... إنِّي دائمًا تحت تصرُّفك!

(كلٌّ منهما يضع سماعته ... ويختفي المحقق.)

الزوج: ما دامت هذه هي نصيحة البوليس! ... فلألزم إذن الصمت والهدوء وعدم القلق! ... هذا حقًّا خير ما يجب أن أفعل! ... لكن ... الجثة؟ ... لا بُدَّ لها أن تُدْفَن! ... أين؟ ... عجبًا! (ينظر إلى جهة الحديقة) ها هو قبرها موجود ... والذي قام بحفره البوليس أيضًا! ... البوليس نفسه! ... شكرًا ... شكرًا ... فلتُدْفَن إذن في صمت وهدوء!

(يتجه إلى حيث ترك الجثة ويحملها على كتفه ويخطو بها نحو الحديقة ... وعندئذٍ يسمع طرقًا على الباب فيُخفي الجثة في مكانها ويذهب ليفتح.)

الزوج (للدرويش الذي ظهر بالباب): هذا أنت؟!

الدرويش: نعم ... هذا أنا.
الزوج: ما الذي ذكَّركَ بي الآن؟!
الدرويش: علمت أنَّكَ خرجت من الحبس.
الزوج: وهل هذا يهمك؟!
الدرويش: بالطبع ... إنِّي لا أُريد لك السوء.
الزوج: أرجو ذلك ... لكن ...
الدرويش: أتشك في حسن نواياي؟!

(ينظر حوله كالباحث عن شيء.)

الزوج: لماذا تنظر هكذا في المكان؟ ... عمَّن تبحث؟!
الدرويش: قيل إنَّ زوجتك قد عادت.
الزوج: نعم.
الدرويش: إنَّها هنا إذن؟
الزوج: نعم.
الدرويش: نائمة؟!
الزوج: نعم نائمة.
الدرويش: هدوء البيت يدل على ذلك.
الزوج: نعم.
الدرويش: وملامح وجهك تدل على ذلك.
الزوج: ملامح وجهي؟!
الدرويش: تدل على أنَّ كل شيء هادئ هنا ... أخشى أن يكون حضوري الآن قد أزعجك.
الزوج: لا ... لا ... مطلقًا.
الدرويش: نبرات صوتك تدل على أنَّك ... منزعج!
الزوج: الواقع أنِّي ... لم أكن أتوقَّع زيارتك.
الدرويش: هذا واضح ... زيارتي لك الآن جاءت مفاجئة ... لعل المفاجأة لم تكن سيئة؟
الزوج: لماذا سيئة؟!

الدرويش: مجرد تساؤل ... إنَّ ما يخشاه الزائر دائمًا هو أن يحضر في وقت غير مناسب.

الزوج: وقت غير مناسب؟! ... لماذا؟!

الدرويش: مجرد افتراض.

الزوج: لا داعي إلى هذا الافتراض.

الدرويش: إذن ... أنا لم أشغلك عن عمل كنت ستقوم به قبيل حضوري؟!

الزوج: لا ... على الإطلاق.

الدرويش: الحمد لله! ... أستطيع إذن أن أمكث معك قليلًا وأنا مستريح البال.

الزوج: ولكن ...

الدرويش: لكن ماذا؟!

الزوج: لا ... لا ... لا شيء ... لا شيء.

الدرويش: أرجوك ... تكلَّم! ... كن معي صريحًا!

الزوج: كنت أنوي العمل قليلًا في الحديقة.

الدرويش: شجرة البرتقال؟!

الزوج: نعم.

الدرويش: وجدت لها السماد اللازم لنموها العجيب فيما أرى.

الزوج: أترى ذلك؟

الدرويش: هذا مُؤكَّد.

الزوج: كيف عرفت؟

الدرويش: إنِّي أعرف ... منذ زمن طويل ... ولكنَّك ضعيف الذاكرة.

الزوج: حقًّا ... حقًّا ... أنت تعرف أشياء كثيرة.

الدرويش: لا تضطرب! ... لا داعي إلى اضطرابك!

الزوج: وهل أنا اضطربت؟!

الدرويش: ثق أنِّي لا أريد بك شرًّا ... إنِّي ما جئت الآن إلَّا لمجرد الزيارة ... زيارتك أنت والسيدة زوجتك!

الزوج: زوجتي؟!

الدرويش: إنَّها نائمة ... قلت لي ذلك.

الزوج: نعم.

الدرويش: وهل سيطول نومها؟!

الزوج: ربما.

الدرويش: نعم ... ربما يطول أكثر مِمَّا نظن.

الزوج: ماذا تقصد؟!

الدرويش: النوم ... أليس من الناس من ينام طويلًا؟!

الزوج: ماذا تقصد بالنوم الطويل؟

الدرويش: الموت طبعًا.

الزوج: الموت؟! ... وما هي المناسبة؟!

الدرويش: ألا ترى المناسبة؟!

الزوج: إذن أنت تعرف؟

الدرويش: بالطبع أعرف ... وسبق أن قلت لك ... ولكنَّك ضعيف الذاكرة.

الزوج: حقًّا ... قلت لي وها أنا ذا قد فعلتها.

الدرويش: نعم ... نعم ... فعلتها! ... الآن!

الزوج: لا يوجد ضدي شاهد غيرك ... أنت وحدك الآن الذي تستطيع أن تضعني في السجن.

الدرويش: ومن قال إنِّي أُريد أن أشهد ضدك ... أو أضعك في السجن؟!

الزوج: سبق لك أن فعلت!

الدرويش: بناء على طلبك أنت ... أنت الذي جئت بي من الهواء لأشهد.

الزوج: وشهدت ضدي.

الدرويش: قلت ما أعرف ... وإذا طلبتني مرة أخرى فسوف أقول ما أعرف.

الزوج: وإذا لم أطلبك؟

الدرويش: لن أقول شيئًا.

الزوج: هل أستطيع أن أثق بك؟

الدرويش: كل الثقة ... إنِّي لا أتحرَّك من تلقاء نفسي ... ولا أتطوَّع بالكلام إلَّا إذا أردت أنت.

الزوج: وأنا لن أريد.

الدرويش: وأنا لن أتكلَّم.

الزوج: وكيف لي أن أطمئن؟!

الدرويش: اطمئن! ... إنِّي واثق من نفسي ... ولكنِّي غير واثق منك.

الزوج: لست واثقًا مني؟!

الدرويش: من يدريني أنَّك لن تُغيِّر رأيك ... وتطلب مني أنت المجيء والكلام يومًا؟!

الزوج: أنا أطلب ذلك؟! ... أطلب ضرري؟ ... أطلب ضياعي؟!

الدرويش: أنا لا أضمنك ... أنا أضمن نفسي فقط ... أنا لن أتكلَّم إلَّا إذا طلبت مني الكلام ... وإذا تكلَّمت فإنِّي أقول ما أعرف.

الزوج: ليس يهمني ما تعرف ... يهمني أن لا تتكلَّم ... هَلُمَّ بنا إذن!

الدرويش: إلى أين؟

الزوج: تُعاونني قليلًا.

الدرويش: على ماذا؟

الزوج: على دفنها ... قبرها جاهز ... حفره البوليس بنفسه!

الدرويش: حاشا لله!

الزوج: أترفض؟

الدرويش: بالطبع أرفض.

الزوج: ولكنَّك كنت تعرف أنِّي سأقتلها.

الدرويش: المعرفة لا تعني الموافقة.

الزوج: إذن أنا في نظرك مجرم؟!

الدرويش: وهل في هذا شك؟!

الزوج: أنصفني قليلًا أرجوك! ... إنَّ قتلها جاء عفوًا ... وهي التي اضطرتني إليه ... هل كان في الإمكان أن أعيش مع امرأة كهذه؟!

الدرويش: لقد عشت معها من قبل سنوات طويلة.

الزوج: ولكنَّها أخيرًا انقلبت إلى شيء مُخيف ... إلى جدار من الصمت.

الدرويش: مُبرِّر كافٍ للتحطيم!

الزوج: لا تسخر ... لو كنت في مكاني لفعلت عين الفعل؟

الدرويش: إنِّي لن أكون في مكانك.

الزوج: إذن لا تظلمني!

الدرويش: إنِّي أرثي لك ... تُحمِّل نفسك كل هذا العناء من أجل سؤال لم تتلق عنه جوابًا!

الزوج: لم أستطع منع نفسي ... هذا فوق مقدوري.

الدرويش: أعرف.

الزوج: هل كان في مقدوري أن أظل طول حياتي أجهل.

الدرويش: لا ... ليس أنت.

الزوج: إذن ...

الدرويش: لو كنت بلَّغت البوليس لحطمت نفسك أيضًا.

الزوج: نعم.

الدرويش: وكل هذا يُساوي عندك ...

الزوج: كان لا بُدَّ أن أفعل ذلك ... قلت لك.

الدرويش: نعم ... كان لا بُدَّ ... اذهب وادفنها إذن!

الزوج: هل تُساعدني؟

الدرويش: لا تنتظر المعونة من أحد ... احملها بنفسك!

الزوج: فليكن! سأحملها بنفسي!

الدرويش: إنِّي واثق من قوة ساعديك!

الزوج: سأحملها ... وسأدفنها تحت الشجرة ... ولست بنادم على شيء ... حياتها كانت عبثًا ... أسقطت ثمرتها ... ولم تعش إلَّا على وهم الأمومة.

الدرويش: إنَّها ليست عبثًا ... ما دمت ستُقدِّمها غذاءً شهيًّا لشجرتك.

الزوج: صدقت ... من هذه الوجهة هي نافعة.

الدرويش: إذا كان هناك عبث ففي حياة الشجرة.

الزوج: كيف؟ ... الشجرة؟!

الدرويش: إنَّها تأتي بزهر هي لا تشمُّه، وبألوان هي لا تُشاهدها، وبثمر هي لا تأكله ... ومع ذلك تُكرِّر هذا العمل العابث كل عام.

الزوج: هذا ليس عبثًا ... هذا عمل نافع.

الدرويش: بالنسبة إليك أنت؟

الزوج: طبعًا.

الدرويش: اعترف إذن أنَّ ما تُسمِّيه بالعبث هو بالنسبة إليك أنت.

الزوج: تريد أن تقول إنَّ حياة امرأتي كانت لها معنى؟

الدرويش: معنى كل كائن داخل كيانه ذاته ... لا داخل رأسك أنت!

الزوج: ولكنَّها عندي بلا معنى إلَّا عندما أُقدِّمها الآن غذاءً للشجرة ... وتنمو بها الشجرة نموها العظيم، وتنتج ثمرها العجيب.

الدرويش: البرتقال في الشتاء ... والمشمش في الربيع ... والتين في الصيف ... والرُّمَّان في الخريف.

الزوج: نعم ... نعم؟

الدرويش: اذهب إذن وأعد لشجرتك الوليمة!

الزوج: إنِّي ذاهب ... لكن ...

الدرويش: لكن ماذا؟

الزوج: هل حقًّا ستطرح الشجرة كل هذه الثمار المختلفة في المواسم الأربعة؟!

الدرويش: لا تسألني أنا!

الزوج: فلنجرِّب! ... أمَّا إذا نجحت التجربة ... فأي أعجوبة سوف تظهر!

الدرويش: فعلًا! ... أي أعجوبة!

الزوج: ولكن الشجرة التي ستطرح كل ذلك لن تكون شجرة برتقال!

الدرويش: لا ... طبعًا لن يكون اسمها شجرة برتقال.

الزوج: ماذا يُمكن أن نُسمِّيها إذن؟

الدرويش: أجل مسألة الاسم إلى ما بعد.

الزوج: صدقت ... فلنؤجل ذلك إلى ما بعد ... من يدري؟ ... ربما سُمِّيَت باسمي ... شجرة «بهادر».

الدرويش: أو شجرة «البهادر».

الزوج: حقًّا «البهادر» بدلًا من «البرتقال» ... اسم مناسب «البهادر» أليس كذلك؟

الدرويش: مناسب جدًّا.

الزوج: وسوف يُوضع في الكُتب والقواميس!

الدرويش: بالطبع ... وسيُدرَّس في الجامعات!

الزوج: وسيقولون إنَّ هذه الشجرة العجيبة من أهم اكتشافات عصر العلم الحديث!

الدرويش: بدون شك ... سوف يتناول العلماء هذه الشجرة بالبحث.

الزوج: البحث؟! إذن سيأتي العلماء إلى هذه الحديقة؟!

الدرويش: طبعًا ... طبعًا ... وسيفحصون كل شبر فيها.

الزوج: سيفحصون كل شبر؟!

الدرويش: بديهي ... لمعرفة أسباب هذه الأعجوبة!
الزوج: سيحفرون إذن تحت الشجرة؟!
الدرويش: إلى أعمق الجذور.
الزوج: ولكنَّهم سوف يعثرون على الجثة؟!
الدرويش: أو هيكلها العظمي!
الزوج: بقايا بشرية على كل حال!
الدرويش: طبعًا.
الزوج: وسيكون هناك سؤال وجواب؟!
الدرويش: بالتأكيد.
الزوج: ويتدخَّل البوليس؟!
الدرويش: بدون شك!
الزوج: ولكن الشجرة العجيبة والاكتشاف العجيب، وانتفاع العلم والناس بكل هذا.
الدرويش: سينتفع العلم والناس بكل هذا.
الزوج: ستنتفعون بشجرة «بهادر»!
الدرويش: نعم ... سينتفعون بشجرة «بهادر» ... ولكن «بهادر» نفسه سيوضع في السجن!
الزوج: ما هذا الذي تقول؟
الدرويش: القانون.
الزوج: القانون سيُحاكمني على هذه الجريمة؟!
الدرويش: طبعًا ... لأنَّ اسمها جريمة قتل!
الزوج: ولكنَّها أنتجت اكتشافًا نافعًا.
الدرويش: القانون لم يزل يُسمِّيها جريمة قتل!
الزوج: ولماذا لا يُغيِّر اسمها؟!
الدرويش: يُسمِّيها ماذا؟ «جريمة البهادر»! بدلًا من «جريمة القتل»!
الزوج: مثلًا ... ولا يُعاقب عليها ... بل تُحْفَظ.
الدرويش: تحفظ للمنفعة العامة!
الزوج: فعلًا ... بالضبط!
الدرويش: إنَّ الأمر أيضًا سيحتاج إلى علماء قانون وفقه وتشريع!
الزوج: ولِمَ لا؟

الدرويش: وسيُؤدِّي ذلك إلى تغيير معنى الكثير من الأشياء: القتل مثلًا، والقاتل، والقتيل.

الزوج: ولِمَ لا؟ ... فليتغيَّر كل ذلك ... فليتغيَّر!

الدرويش: نعم ... فليتغيَّر كل ذلك.

الزوج: ما دامت شجرة البرتقال لم تعد شجرة برتقال، فكل شيء إذن يجب أن يُغيَّر اسمه ومعناه.

الدرويش: حقًّا ... ولكن ...

الزوج: ولكن ماذا؟

الدرويش: لا بُدَّ من مرور بعض الوقت حتَّى يُسمَّى «السجن» باسم آخر غير «السجن» ... وحتَّى يُمكن إنقاذك من بين قضبانه.

الزوج: هل ترى أنِّي سأُحاكم حقًّا؟!

الدرويش: وقد يُحْكَم عليك بالإعدام! ... ومع ذلك ... ماذا يهمك من الإعدام؟

الزوج: ماذا يهمني؟!

الدرويش: ألم تكن على وشك التبليغ عن الجريمة وتسليم نفسك؟! ... إلَّا إذا كنت وقتئذٍ غير جاد.

الزوج: بل كنت جادًّا في مبدأ الأمر ... ولكن ...

الدرويش: غيَّرت رأيك إذن؟!

الزوج: خلاصة الأمر أنَّك تريد الآن أن تُخيفني، وأن تجعلني أُحْجِم وأتراجع.

الدرويش: أريد أن ترى المسألة بوضوح ... وأن تعرف جيِّدًا ما ينتظرك!

الزوج: الاكتشاف معناه اكتشاف جريمتي!

الدرويش: بالضبط.

الزوج: ودفع ثمنها!

الدرويش: بالضبط.

الزوج (مُفكِّرًا)**:** يجب إذن أن أُقرِّر.

الدرويش: وأن تتخذ قرارك بعد إمعان.

الزوج: لا داعي إلى الإمعان ... قراري جاهز ... ولا رجوع فيه ... ولا شيء يجعلني أخاف وأُحْجِم ... ولو حُكِمَ عليَّ بالإعدام! ... لأنَّ حياتي بعد ذلك لن تُساوي شيئًا.

الدرويش: ما هو قرارك؟!

الزوج: أريد الشجرة العجيبة!
الدرويش: إذن اذهب واحمل إليها طعامها!
الزوج: إنِّي ذاهب.

(يتحرك متجهًا إلى حيث وضع الجثة ... ثم لا يلبث أن يُسْمَع صياحه، ويظهر مضطربًا مأخوذًا.)

الدرويش: ماذا حدث؟!
الزوج: الجثة! ... زوجتي! ... الجثة؟!
الدرويش: ماذا بها؟!
الزوج: اختفت ... الجثة اختفت.
الدرويش: اختفت ... من موضعها؟!
الزوج: اختفت ... غير موجودة حيث تركتها.
الدرويش: لعلها في الحديقة؟!
الزوج: ومن الذي نقلها؟! ... إنِّي لم أكن قد نقلتها بعد؟
الدرويش: اذهب على كل حال وانظر!
الزوج (وهو ذاهب)**:** هذا غريب! ... غريب!

(يذهب إلى الحديقة، يتبعه الدرويش بنظراته.)

الدرويش: وجدتها؟!
الزوج (صائحًا من الحديقة)**:** لا ... لم أجدها ... ولكن ... الشيخة خضرة ...
الدرويش: مالها؟ ... الشيخة خضرة؟
الزوج: ميتة ... ومُلقاة في الحفرة!
الدرويش: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! إنِّي ذاهب توًّا إلى مكتب التلغراف ... أُرسل إليك برقية تعزية!

(يختفي الدرويش ... ويخلو عندئذٍ المسرح ... ثمَّ يدوي في أرجائه فجأة صوت خفي لحفلة «السبوع»: «برجلاتك برجلاتك» ويعقبها فجأة صوت القطار وصفيره ونشيد الرحلة المدرسية: يا طالع الشجرة هات لي معك بقرة ... ثمَّ يختلط الصوتان؛ حفلة السبوع ونشيد القطار وصفيره، ويتداخل أحدهما في الآخر.)

هنداوي